الفصل الحادى عشر

نتائج الفطنة والصادح والباغم

« للشريف بن الهبارية »[1]

ابن الهبارية من أشهر من نظموا قصص الحيوان فى الأدب العربى وله من ذلك ثلاث منظومات هى : « نتائج الفطنة فى نظم كليلة ودمنة » ، كتاب « الصادح والباغم » ، وينسب اليه كتاب ثالث هو « درر الحكم فى أمثال الهنود والعجم

أما الأول والثانى فهما بين أيدينا ، وأما الثالث فمنه نسخ خطية فى فينا وميونيخ ، وقد نسب الى عبد المؤمن بن الحسن الصاغانى ، وقيل انه أكمله وقيل أنه نظمٌ لكليلة ودمنة أو لشىء منه (٢)

---

(١) هو الشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح ، المعروف بابن الهباريه ، الملقب نظام الدين البغدادى . من نسل على بن عبد الله بن عباس توفى سنة ٥٠٤ هـ

كان شاعرا مجيدا حسن المقاصد ، لكنه كان خبيث اللسان ، كثير الوقوع فى الناس لا يكاد يسلم أحد من لسانه ، وكان ملازما لخدمة نظام الملك أبى على الحسن ابن على بن اسحق ، وزير السلطان ألب أرسلان وولده ملك شاه ، وله عليه الانعام التام والادرار المستمر . وكان بين نظام الملك وتاج الملك أبى الغنائم بن دارست شحناء ومنافسة . فقال أبو الغنائم لابن الهبارية ان هجوت نظام الملك فلك عندى كذا وأجزل له الوعد . فقال له كيف أهجو شخصا لا أرى فى بيتى شيئا الا من نعمته فقال لابد من هذا فهجاه فبلغ ذلك نظام الملك فأغضى عنه ولم يقابله على ذلك بالاساءة بل زاد فى أفضاله عليه (ص ١٩ ج ٢ وفيات الاعيان لابن خلكان)

(٢) ج ٢ ص ١٣٣ تاريخ آداب اللغة العربية

نتائج الفطنة فى نظم كليله ودمنه

طبع هذا الكتاب فى المطبعة اللبنانية ، بعبدا لبنان سنة ١٩٠٠ م، وقد نشره وهذبه الخورى نعمة الله الأسمر الماروني اللبنانى وكتب له مقدمة مختصرة سماها مقدمة المصحح ، وبدأها ، باسم الله الأزلى ، وقد بين فى هذه المقدمة :

(١) أنه وفق إلى وجود هذا الكتاب مخطوطا بيد الكاتب ألب بن عبد العزيز بن ألب فى شهر ذى الحجة سنة ٧٤٧ هـ

(٢) أن هذه النسخة الخطية كانت فى غاية ما يكون من الاتقان لولا النزر اليسير من أغلاط النسخ

(٣) أنه قابل بين نظم الكتاب ونثره فلم يجد فرقا فى حسن السبك ومتانة التركيب ولكنه وجد اختلافا فى ترتيب الابواب ، واختلافا فى تسمية بعضها ، ووجد الشعر خاليا من مثال الرجل الخائف من الذئب ، وهو أول أمثال باب الاسد والثور ، ومن بعض فقرات من سائر الابواب ، وخاليا من باب الحمامة ومالك الحزين والثعلب ، وهو آخر أبواب الكتاب ، وينسب ذلك لأمرين : سهو الناسخ عن البعض [1] وعدم وجود البعض الآخر فيما أخذ عنه الناظم

(٤) أنه فكر فى طبعه ، لما لكتاب كليله ودمنة من الشهرة ، ومن إقبال الناس عليه ، ولسهولة حفظ الشعر وبقائه فى الذاكرة ، وأنه أحب الى الحافظ من النثر .

(٥) أنه أحجم عن طبعه لصعوبته ثم أقدم لما شجعه الناس وأكدوا له أن التقصير مغفور . وصحح أغلاطه وحذف مافيه من الامثال التى يترفع

---

(١) ليس من المعقول أن يسهو عن باب بأكمله ، والمعقول أنه لم يكن موجودا فى النسخة التى نقل عنها .

أهل العصر عن مطالعتها ونظم غيرها مأخوذا من النسخ النثرية المطبوعة ونظم ماخلا منه الكتاب — كتاب ابن الهبارية — وأشار إلى مانظمه بأن وضعه بين أقواس وأبقى على ترتيب الابواب وألحق النظم بما يكفل لقارئه تفسير الغريب من ألفاظه

٣ « أما عدم الفرق بين نثر ابن المقفع ونظم ابن الهبارية فى حسن السبك ومتانة التركيب فمسألة فيها نظر ، فللنثر أصوله البلاغية وللنظم أصوله أيضا. وقد بلغ ابن المقفع درجة عالية فى النثر العربى . أما ابن الهبارية فأحسن نظمه فى درجة متوسطة من الرجز .

ويكفى فى بيان سبق ابن المقفع واجادته ان أقارن بين النصين الآتيين : قال ابن المقفع :

« وقد قالت العلماء فى الرجل الفاضل الرشيد ، إنه لا يرى الا فى مكانين ولا يليق به غيرهما ، إما مع الملوك مكرما ، واما من النساك متعبدا ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه فى مكانين . إما ان تراه وحشيا ، واما مركبا للملوك »(١)

وقال ابن الهبارية نظما لهذه الفقرة :

فليكن الحر مع الملوك ... أو ناسكا فى موضع متروك
كالفيل إما مركب السلطان ... أو فى مكان ليس ذا امكان(٢)

فابن المقفع قدم لهذه النصيحة بقوله : « وقد قالت العلماء » ، ونسبة هذا القول إلى العلماء يجب فيه من يسمعه . اما ابن الهبارية فقد بدأه بصيغة الأمر ، وهى تحمل معنى الاستعلاء ، فيها شىء من الغلظة ، وكثيرا مايكون الأمر صارفا عن قبول النصيحة .

وقال ابن المقفع ، « اما مع الملوك مكرما ، وإما مع النساك متعبدا » فهو فى حالتيه عزيز المنزلة كريم المثوى . اما ابن الهبارية فجعله « مع الملوك »

---

(١) ص ١٠٢ كليلة ودمنة باب الاسد والثور
(٢) ص ٤٠ نتائج الفطنة « « «

فقط ، ولم يشر الى منزلته معهم ، فاذا لم يكن ، فيصير « ناسكا فى موضع متروك » . وأحس أن « الموضع المتروك » زائدة لتكملة النظم ولا تؤدى الغرض منها ، لما توحى به كلمة « متروك » من معنى الوحشة المنفرة من النسك فى هذا المكان .

وفى التشبيه — يجعل ابن المقفع الفيل جميلا بهيا فى حالتيه ، وليس ذلك عند ابن الهبارية . وكلمة « وحشيا » عند ابن المقفع توحى بالعزة التى يستمتع بها الفيل اذا لم يكن عند الملوك مكرما ، وليس كذلك عند ابن الهبارية لأنه سيعتزل « فى مكان ليس ذا مكان » ، والجناس بين « المكان ومكان » قد أثقله . وكيف يحب مكان لا قيمة له كالذى يريده ابن الهبارية !

وابن المقفع ناثر يقرر حقائق ، وعالم يستعين على توضيح درسه بالأسلوب الجيد ، والتشبيه الجميل ، والتقسيم المنطقى الذى له مكان فى النثر . اما ابن الهبارية فينظم معنى ابن المقفع وهو مقيد بقيود النظم . ويطرق معانى بعيدة عن معنى الشعر وخيال الشعراء ، ويستخدم فى بيانها أساليب العلماء ، فلا يصل الى هؤلاء ولا الى هؤلاء . »

ومن الطبيعى الا يوجد فى نتائج الفطنة باب خطبة الكتاب لأنه وضع فى ايام محمد على . اما باب مقدمة الكتاب الذى وضعه بهنود بن سحوان فلعله لم يكن معروفا لابن الهبارية وان كان بهنود بن سحوان قد توفى سنة ٣٠٢ هـ ، قبله بقرنين من الزمان ، أو أنه كان يعرف هذا الباب وأهمله كما أهمل باب عرض الكتاب لابن المقفع . ويستمر الترتيب من باب برزويه إلى باب الناسك وابن عرس ثم يختلف الترتيب فيما بعد وتختلف التسمية فى باب هيلار ملك الهند . ثم تأتى ثلاثة أبواب متفقة ، ثم يختلف الترتيب إلى آخر الكتاب .

والاختلاف فى التسمية فى باب هيلار ، والطائر قبرة والملك ، واللبؤة

والأسوار والشعير . ليس تصحيفا فى الأولين إذ أن اسم الوزير « بيدلار » ورد قافية فى النظم لما قال له هيلار :

الساعة الساعة يا بيدلار بحقى اقتلها كما أختار (١)

وصاحب السر الأمين بيدلار لايكتم الأسرار إلا الأحرار (٢)

وكذلك الحال فى اسم الطائر « قبرة » الذى ورد فى كليلة ودمنة باسم « فنزة » ، والنظم لايترك مجالا للشك فى الاسم ، فقد ورد فى النظم أنه كان عند الملك

طائر يربيه يسمى قبره كدمية فى حائط مصوره

وقد يكون الخطأ من ابن الهبارية عند نقل الاسم ، لتشابه الكلمتين فى الرسم ، أو أنه « قبرة » فى ابن المقفع وأخطأ الذين نقلوه فيما بعد فكتبوه « فنزة » (٣)

أما الحذف والزيادة ، وتحرر الناظم من حرفية الكتاب عند النقل فشىء لابد منه : فالشجرة التى كان يقيم الجرذ عندها فى « باب الجرذ والسنور » مثلا هى من شجر « البيرود » ذات ثمرة

فى أصلها جحر كشدق النون لجرذ سمى بأفريدون

وليس للشجرة نوع ولا ثمر فى كليلة . واسم الجرذ هناك « فريدون » من غير همزة . ونقل بعض أبيات مثل التى نقلناها عن أبان فى الرجل إذا افتقر قال ابن الهبارية (٤)

فكل ما يطرى به الغنى يلحى عليه المقتر الشقى

---

(١) ص ٢٠٢ (٢) ص ١٩٢

(٣) فى كتاب أنوار سهيلى الفصل الثامن ص ٤٤٥ كلمة Lark وهى تقابل « قبرة » العربية . وقد أشار الدكتور عزام فى تحقيقه ٢٩٩ إلى أن فنزة أقرب كلمة إلى الأصل ولكنه آثر قبرة لاستعمال ابن الهبارية

(٤) ص ١٣٧ نتائج الفطنة

إن كان شهما قيل غر أهوج وحاله جميعه معوج
أو كان ذا جود وذا سماح قيل : سفيه ليس ذا صلاح
وحلمه عجز ، كما وقاره بلادة يعظم منها عاره

وذلك هو قول ابن المقفع الذى نقلناه قبلا عن باب الحمامة المطوقة .

وأما حذف بعض الأمثال التى يقنع أهل العصر عن مثالها ، فهو معيب ، إذ أن الأمانة فى الطبع تقتضى الابقاء على الكتاب كما هو ، وكما أراده صاحبه ، ولا عيب عليه فى نظم ما خلا منه الكتاب مادام قد أشار إلى ذلك . وقد رجعت إلى بعض الأبيات التى غيرها فوجدته لم يفق ابن الهبارية فى نظمه . وذلك واضح فى نظمه المذكورة .

وكثيرا ما أشار إلى أصول أبيات أو أشطر غيرها ، أو حذفها . وقد تغفر له هذه الإشارة ما أحدثه من التغيير . وللقارىء أن يحكم على فائدة هذا التغيير ومبلغ حرص كل من ابن الهبارية والخورى على الأصل ، عند مقارنتهما بكليلة ودمنه . وقد أخذ الخورى نعمة ابن حذره لئلا يتعرض لمثل هذا النقد ، فسمى عمله فى عنوان الكتاب « تهذيبا » . ولكن الذين يريدون الكتاب كما هو يرون عيبا فيما فعله من حذف وزيادة ، وكانوا يودون الابقاء عليه كما كان .

ويقول ابن الهبارية عن فضل كتابه

وإن لى فى نظم ذا الكتاب فضلا عن الأقران والأضراب
لأنه خير كتاب صنفا وفيه علم مثله ما ألفا
فيه لارباب الرجال عبرة يزيد بالدهر الخبير خبره
سار مسير الشمس فى الآفاق يضىء فى النفوس والأخلاق

وأشار إلى حفظ يحيى بن خالد لنظم أبان بقوله :

أراد يحيى حفظه فما قدر إلا بما قال أبان إذ شعر
لأن حفظ النثر أمر صعب وكلفة يعجز عنها القلب

كانت طباع القوم دون نظمه وعجزوا عن سبكه لنظمه

إلا أبان اللاحقى الكاتب فانه فى نظمه لغالب
ثم أبو يعلى ، أنا ، فإنى نظمته بالجهد والتعنى
متبعا فيه أبان اللاحقى وليس - وهو سابقى - بلاحقى
فان يكن أقدم منى عصرا فانى أحسن منه شعرا
ما قدم العصر مفيد فضلا قد يفضل الفرع الزكى الأصلا
فاعتبروا النظمين ياساداتى فأنتم أعرف بالأبيات

وواضح من هذا أنه أراد معارضة أبان ، وأن كل من حاول نظم الكتاب قد عجز عن ذلك فى نظره ، ولم يستطعه إلا هو وأبان . ولا أدرى إن كان قد جهل المنظومات الأخرى التى نظمها الفضل بن نوبخت ، وعبدالله ابن هلال الأهوازى وعلى بن داود أو تجاهلها .

أما نظمه فلم يفق نظم أبان ، والأبيات التى نقلها الصولى فى كتاب الأوراق لاتقل عن هذه فى الجودة ، إن كانت هذه جيدة .

وقد استخدم كل منهما الرجز لسهولته . وأرى فيما بقى من نظم أبان لكليلة ودمنة ، ومن نظمه فى العلوم كتاب « الصوم والزكاة » ما يجعل له الفضل على ابن الهبارية . فالساقط من قول هذا الشريف كثير ، وضعف « الشعر » واضح إن سمى هذا شعرا ، وفيه شبه بأقوال العوام ، كقوله بعد أن فضل نفسه على أبان :

فاعتبروا النظمين ياسادتى التى فأنتم أعرف بالأبيات

وقوله عن الإخاء :

وإنما الإخاء للمؤاخى كأنه مغرفة الطباخ
يَبقى بها حرُّ الطبيخ كفَّه صحيحة إذا أراد غرْفَه
حتى إذا مادهرُها أفسدها وأصبحت مكسورة أوقدها

وقوله :

وتعب النسك يفيد راحه نفس اللبيب نحوها مرتاحة

والكتاب فيه كثير من هذه الأبيات الضعيفة التركيب ، المهلهلة النسيج فضلا عما يلجأ إليه الشاعر من الضرورات كتسهيل المهموز ، وقصر الممدود وتسكين المتحرك ، وتحريك الساكن ، وأمثال ذلك ؛ ولكنها ضرورات مقبولة ، أما الزحافات والعلل فقد كثرت حتى لا يدرى القارىء أيقرأ نظما أم نثرا .

وأما القافية المزدوجة فقد فتحت أمام الناظمين أبواب التجويد ، ويسرت لهم طول النفس ، والاستمرار فى القصة مهما طالت ، وإن نظم كتاب بتمامه أمر صعب شاق ، فصاحب النظم مقيد بمعانى الكتاب المنثور ، مضطر إلى المحافظة على الأصل ، مرغم على التزام حدود الوزن والقافية ، فإذا عرض شاعر لمثل هذا العمل واستطاع أن يبلغ ما بلغه أبان أو ابن الهبارية ، وسلم له ما سلم لهما من النجاح ، كان له حظ عظيم من التوفيق .

وإذا سلمنا بأن أبان اللاحق قد نظمه فى ثلاثة أشهر وعجبنا من ذلك ، فالحال أعجب مع ابن الهبارية ، الذى يقول إنه نظمه فى عشر ليال ، ولو أنه وقف عليه نفسه لنظمه فى خمس ، ويرجع ذلك إلى سعد ممدوحه مشيد الدولة سيف الدين ؛ يقول :

تم الكتاب وانقضت أبوابه ... كالدر إذ يزجى به سحابه
حررت فى عشر ليال عقده ... ولم أطق حتى استعنت جده
نعم ، ولو أنى وقفت النفسا ... عليه لاغير ، لكانت خمسا

وإذا كان قد بلغ هذه الإجادة فى هذا الزمن القصير ، فماذا كان يحدث لو أنه عاد عليه بالتنقيح والتهذيب ، ولو أعطى نفسه فسحة من الزمن ، وتحرر كما تحرر ابن المقفع ومحمد عثمان جلال وشوقى ، لأتى بما هو أجود وأرق وأوفى بالمعانى مما هو عليه الآن .

الصادح والباغم

هذا كتاب آخر نظمه على أسلوب كليلة ودمنة . ولقد أجاد فيه كل

الاجادة، وسير الكتاب على يد ولده إلى الأمير أبي الحسن صدقة بن منصور ابن دبيس الأسدي صاحب الحلة (١) . . . فاجزل عطيته وأسنى جائزته . أما عدد أبياته وكذلك مدة النظم فقد أشار إليهما في قوله (٢)

أنفقت فيه مده ... عشر سنين عده
بيوته ألفان ... جميعها معانى
لو ظل كل شاعر ... وناظم وناثر
كعمر نوح التالد ... فى نظم بيت واحد
من مثله لما قدر ... ما كل من قال شعر
أنفذته مع ولدى ... بل مهجتى وكبدى

ولم ينس طريقته فى الفخر بما يعمل . فقال فى موضع آخر :

وهو كتاب حسن خطير ... ليس له فى فنه نظير (٣)

وقد بين فى المقدمة أنه نظم هذا الكتاب لينفذه تحفة إلى ممدوحه وقدمه إليه وهو غائب عنه . وقد أسرف فى الثناء على هذا الممدوح فقال إنه لو كان الشباب من هباته لما شاخ ناس :

أو اقتدى بفعله الزمان ... ما خلق الشر ولا الهوان
أو أنه يجير من جور الردى ... ما علقت كف المنون أحدا

وبدأ الكتاب بباب سماه باب « الناسك والفاتك » وجعل مقدمة هذا الباب أنه خرج للعمرة ؛ وتخلف عن أصحابه ؛ فلقى رجلا شيخا يناجى صاحبا مكتهلا ، وافتخر كل منهما بقومه وما لهم من فضل وامتياز فى الاختراع .

فكان قول الشيخ ، قومى الهند ... الحكماء العلماء اللد
لو لم يكن من فضلهم إذ يختبر ... فضل الرجال منصف ويعتبر

---

(١) كان يقال له ملك العرب ، وكان ذا بأس وسطوة وهيبة ، قتل سنة ٥٠١ هـ (ابن خلكان حـ ١ ص ٢٨٧)

(٢) ص ١٢٠ . (٣) ص ١١

إلا الذى أبدوه فى الشطرنج للناس من علم سديد النهج
فيه إشارات إلى مواعظ نافعة لكل واع حافظ
قد رسموها للهدى مثالا إن الحكيم يضرب الأمثالا
يعلمون أن العيش فى التدبير وليس بالقسمة والتقدير

قال له الكهل وقومى الفرس الحكماء مابذاك لبس
لهم سياسات وتدبير حسن كالشرع عدلا فى الفروض والسنن

ثم قال

والعيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأى ولا التدبير
وقد وضعنا النرد للمثال لو فطنت بصائر الرجال

واستمر الفخر بينهما فى أبيات كثيرة ، بين كل منهما حجته فى فضل ما اخترعه قومه، وما فيه من اشارات ودلالات ؛ ومايستفيده لاعبه من سياسة وحكمة ، وما كان لاختراعه من أثر فى سياسة الملوك والدول . وهذا آخر حوار بينهما :

قال له الهندى : وهو صادق لكن لنا فضل عليكم سابق
تصنيفنا كليلة ودمنه يقضى لنا بحكمة وفطنه
كم فيه من موعظة وعلم وحكمة تعجب أهل الفهم
قال له الفرسى : فى سواه لو كنت ذا علم به ؛ معناه
قال :وما رأيته ؛ قال : أجل ذاك لنقص فيك ليس يحتمل(١)

سمعت بالله حديث الناسك إذ راعه الليل بلص فاتك
فقال : لم أسمعه فاذكر أسمع لاتنفع الأخبار إلا من يعى

وبدأ الفارسى قصة الناسك واللص الفاتك (٢) وخلاصتها : أن هـــذا

---

(١) قال الأولى فاعلها الهندى والثانية الفارسى
(٢) الصادح والباغم ص ٢٥

الفارسى خرج فى جماعة من التجار ، ومعهم ناسك نزل للصلاة فى طريق غير آمن ، فجاءه لص ، فأخذ الناسك يعظه ، ويعده أن يزوجه ابنته الوحيدة ؛ فحزن اللص وأظهر أنه قد مات متأثراً بقوة وعظه ، فنادى الناسك أصحابه التجار ليعودوا ويشهدوا جهازه . فخاف اللص وقام يريد الفتك به ، فتضرع الناسك إليه وأخبره ألا فائدة فى قتله ، فقال له اللص :

تريد أن تخدعنى لتسلما وأننى أعض كفى ندما

أما سمعت قصة الظليم وفتكه بالصياد . فقال الناسك : لا ؛ فأخبرنى بها ؛ فقال له : أخذ صياد ظليما فسأله الظليم لم أخذتنى :

قال له : شيخ مُعيلٌ (١) عائل ولى بنات حالهن حائل
تسعة أطفال صغار ، فبكى الظـ ـليمُ مما قاله وضحكا (٢)

فسأله الشيخ : ماالذى يبكيك ويضحكك ؟

قال بكاى لفراخى ، إنهم قد خيبت فىَّ الليالى ظنهم

فرق لبكاه وذكر أولاده ، ثم سأله عن سبب الضحك . فقال الظليم :

خرجتَ تبغى الرزق للعيال والرزق فى بيتك كالجبال
قال — وما ذلك ؟ قال : كنز فى داركم حيث تُشَدُّ العَنَسُ

ففرح الصياد وهم أن يطلقه ، ولكنه خشى أن تكون هذه حيلة ؛ فلم يطلقه ، ففكر فى حيلة أخرى ، فقص عليه قصة البعير والجمال .

أخبره الظليم أن جمالا كان سائراً بحمله وعليه طعام ، فاستقبلا ، سرية مغيرة ، لم يرها الجمال وأبصرها البعير . فأخبره بخبرها فلم يصدقه ، حتى أدركته وشدت ثاقه .

---

(١) معيل كثير العيال . عائل : فقير

(٢) الضرب مخالف للعروض . والنظم مضطرب ولعله أراد أن تكون « فبكى » آخر الشطر الأول فخانه الوزن .

وعاد الظليم إلى حديثه مع الصياد ، والصياد فى شك من أمر الكنز الذى فى داره ، وقال للظليم :

من أين تدرى علم ما فى منزلى ... من الكنوز فى الزمان الأول

فوصف له الظليم داره ، وما زال به حتى صدقه وأطلقه . وعاد إلى أولاده حريصا على إخراج الكنز . « فلم يكلمهم وبات يحفر ، فلم يجد شيئا وخرب الدار ولامه الناس

ونعود للقصة الأصلية : قال اللص للناسك : إنك تريد أن تخدعنى لأتركك فقال له الناسك :

انك ان كففت عن أذاتى ... أعطيتك المفروض من زكاتى

وقلت للرفقة هـذا طالب ... وحقه من الزكاة واجب

وكان خيراً لك فى الدارين ... ما ترى فى موتتى وحينى

فانخدع اللص الفاتك وسار معه ، فلما وصلا إلى الركب أخبرهم الناسك أنه لص خبيث ، فربطوه ربطا محكما ، وقال له الناسك .

وقعت بعد ضربك الأمثالا ... وذكرك الظليم والجمالا

فضرع إليه اللص وتاب على يديه ، وأعطاه القوم شيئا من الزكاة ، وأطلقوه فغدا يقول ... خُدعتَ عن رأيك ياجهول

من نال مايريده فقد غَلَب ... قد اتفقنا ، واختلفنا فى السبب

وينتهى بهذا باب « الناسك واللص الفاتك »

ويأتى بعده باب « البيان ومفاخر الحيوان »

يقول الفارسى إن شيخا من الأعراب حدثه انه خرج رائداً لأهله ، فجار عن مقصده فوقف حائرا ، فرأى شخصا قريبا فارتاع وظنه الغول ، ثم ظهر له نخل وأثل ، فذهب إلى هناك فوجد عيون ماء ورياضا ، فنزل فربط ناقته

وأكل من بعض النخيل ، ثم صعد نخلة لينام فوقها بعيداً عن الأذى .

فجاء ببرّ وهزبر ونمر والوحش والطير جميعا تبتدر
وجاءت الأنعام والبهائم والهام والطيور والأراقم
والحشرات كلها ودقها مفتنة فى خلقها وخلقها
وارتفع العنقاء فوق دلبه وهو أمير الطير يبغى الخطبه (١)

فخطب فحمد الله واثنى عليه ماخصه به من بديع الحسن ، وأفرده به من صورة شاهدة بقدرته . وان كذب به الطغام . وشك فى وجوده الأنام لضعف عقولهم . وقال : إن هذا التكذيب ليس عجيبا من الناس .

فانهم قد كذبوا بالصانع وأنكروا البعث ليوم جامع

واستمر العنقاء فى حديثه عن بنى آدم ومزاعمهم وإنكارهم للغيب وأنهم لو فكروا فى ملكوت السموات والأرض لآمنوا بالله ، ولما قالوا :

إن هذا من عمل الطبائع . أو أنه صنعة من غير صانع ، أو أنه من عمل النجوم ، إلى آخر ما أورده عن الناس ذما لآرائهم وعقائدهم ، وعدم اعتبارهم وتفكيرهم . ثم يختم ذلك بالاستدلال على أن بنى آدم ليسوا أفضل منهم ، وملمحا إلى أن الحيوان خير من بنى آدم لعدم إشراكه ويأسه فيقول :

أسألهم ، ولا يقولوا مينا بأى شىء فضلوا علينا
ونحن لانشرك بالله ولا نقنط من رحمته إذ نبتلى

فقالت الطيور مثل قوله وضجت الوحش به من حوله
وقالت الانعام والسباع لقد أصاب الملك المطاع

ثم يقول الفارسى : إن الأعراب تألم لما سمع هذا الطعن فى بنى جنسه

---

(١) نوع من الشجر الكبير

الانسان ، وهم أن يجيب ، ولكنه رأى نفسه وحيدا تخاف الهلاك ، وخشى أن يكون مثله مثل من أضاع المال لطلب الربح : كالتاجر الذى أراد أن يبيع جواهره لملك ، فعابها الدلال لعله يكرهها وقد يبيعها رخيصة فعاد بها التاجر إلى بيته ليصلح مافيها من العيوب ، على طريقة رآها فى مكتوب .

فدقها فى هاون وبلها بلبن الكلب يريد حلها

ووضعها فى الشمس لعلها تحلها ، فصارت الجواهر برادة ، فندم المسكين ، وكذلك من باع الوجود بالعدم .

ورأى الشيخ أنه لابد له من حيلة مع هؤلاء البهائم ، وأن الكيد قد يغنى عن القوة .

فاستعمل الحيلة والكيد مع هؤلاء البهائم ، فنزل إلى عين ماء وغاص فيها إلى رقبته ، وصاح صياحا عظيما أفزعهم ، فكادوا يفرون ، ثم ذهبوا إلى مصدر الصياح وسألوه : من أنت ؟ . فقال رسول ملك الجن أرسلنى إليكم فى صورة إنسان . وقد سمع ماقلتم فى حق بنى آدم وإنى سأناظركم وكيلا عنه . فدعوا الفيل للمناظرة ، فلم يصلح ، ثم دعوا الأنعام فتكلم منها الجمل فقال : إنها لاتنسى فضل الانسان عليها ، وطول صحبتها له .

فغضب النعام مما قال الجمل . واتهمه بالحمق ، وأخبره أن سبب إكرام الناس لهم هو انتفاعهم بالحيوان . وأنهم يفعلون ذلك كالضرغام الذى أكرم حمارا وأنقذه من الطين وسمنه ثم أكله ، أو كالذئب الذى مر بغزالة مريضة هزيلة فأخذها وأحسن طعامها حتى سمنت ثم أكلها . وهكذا الانس فى إكرامهم لبعض أنواع الحيوان .

فقال أبو أيوب : إن إكرام الناس أو إيذاءهم للحيوان فيه مصلحة .

ثم تكلمت العنقاء ، وتكلم الحصان ينفى التهم عن بنى آدم وتحدث كثيرا عن فضل هذا النوع من المخلوقات وان الله قد جعلهم سادة لهم ، وسخر لهم مافى الارض جميعا .

واستمر الجدل بينهم حتى آمن الجميع بأن الحصان « الصبا » على صواب ، وانقاد العنقاء ملكهم للحق ، ودعا الشيخ الاعرابى فاعتذر اليه وقال له : قل لملك الجن : انى قد تبت عن مقالى ، وبان لى ما كان خفيا عنى .

لكنه عجب من فعال ملك الجن ، مع ما بينهم وبين الانس من عداوة بالطبع ، فنفى الاعرابى هذه العداوة وأثبت أن أصلهما النار والطين ، ولا يمنعان ما بين الثقلين من قرابة التكليف ، وأنهم مخاطبون جميعا بالأوامر والنواهى . وتفرق الجميع وذهب الاعرابى بالفرس الأشقر .

وينتقل بعد ذلك الى الحكم والأمثال - فيذكر انه اجتاز فى طريقه بزهر أنيق وروضة أريضة ، فيها طيور صوادح .

وطائر فى شجره ليس يمس الثمره
كأنه مفكر أو واله محير

فأقبلت غزالة فى حسنها مختالة
فربضت قريبا وانتصبت خطيبا

وتكلمت فى غرور الدنيا ، وفى صحبة السلطان .

فردت عليها الايكية « الحمامة » فصلا فى واجبات السلطان ، وآخر فى علو الهمة وطلب المعالى ، وثالثا فى منفعة التجارب ، ورابعا فى هموم الدنيا وغمومها وخامسا فى اجتناب الجهال . وجاءت كل منهما بكثير من الحكم والأمثال فى سياسة الناس ومنافعهم ومضارهم وأخلاقهم وأعمالهم وطغيانهم إذا قدروا ، وذلهم إذا هانوا ، وأشباه ذلك .

ثم جاء بفصول فى الحكم أكثرها صناعة لفظية : منها فصل يبتدىء بحكم مع لا الناهية وغيره بحكم مع من الشرطية أو حكم مع ليس ، أو حكم مع ما النافيه أو كل ، ثم حكم مع من الشرطية ، وفصل فى التوقى من كلام الناس ، وفصل فى شروط الصحبة ، وفصل فى الصحبة والقناعة وفصل فى شرف السلطنة

وجلالتها/ وفصل فى نصب العمال . وحكم متفرقة ، وفصل فى الكرم والسخاء وحكم مع ما التعجبية ، وحكم متفرقة ، وفصل فى رداءة الاقارب وأقوال أدبية ثم يختم ذلك بأنهما افترقا ، ثم تم الحديث وختم .

ويلى ذلك مدح الأمير صدقة ، ثم فصل فى الكتاب ومدحه ـ وانه جعله برسم الأمير صدقة .

وإذا نظرنا الى الكتاب وجدناه ينقسم ثلاثة أقسام ، بعد المقدمة .

(١) باب الناسك واللص الفاتك :

وقد تأثر فيه بكليلة ودمنه فى ايراد حكايات على لسان البهائم والطير يقصد بها الحكم والموعظة ، كقصة الصياد والظليم ، وقصة البعير والجمال .

(٢) باب البيان ومفاخرة الحيوان :

وهو متأثر فيه باخوان الصفا فى تداعى الحيوانات على الانسان وذلك من حيث الفكرة الفلسفية التى أودعها فى المناظرة بين الحيوان بعضه وبعض وبينه وبين الاعرابى الذى أخبرهم انه رسول ملك الجن لهم . ومن حيث الاستطراد والخروج من مناظرة إلى مناظرة ، ومتأثر بكليلة ودمنه فى الحكايات الفرعية والمغازى الخلقية

(٣) باب المحاورة بين الحمامة والظبية .

وقد تأثر فيه إلى حد ما ، بأبى العتاهية فى إيراد الحكم والأمثال فى قصيدته الطويلة « ذات الأمثال »

ولكنه مشى فيها على طريقة أكثر نظاما ، إذ جمع فيه الحكم المتشابهة تحت عنوان واحد ، وأخذ العناوين من كتاب كليلة ودمنة ، ومن كتب الآداب السلطانية ، ومن كتب الأخلاق ومن مواعظ الصالحين ، وضمنها آراء قيمة فى أصناف الناس وفى أعوان السلطان وفى سياسة الرعية ... الخ وهذه الحكم خفيفة سهلة ، مع حسن النظم ، وان كانت قد جمعت جمعا فى بعض الأبواب وليس بينها رابط إلا الوزن

وتأثر فى نظمه بأبان بن عبد الحميد، إذ اختار الرجز والقافية المزدوجة ليسهل عليه مالا يسهل فى غيرهما من الشعر ، كما قلنا فى نظمه لكليله ودمنه .

أما عيوب الكتاب فمنها كثرة القصص الاستطرادية التى زاها فى البابين الأولين . ثم ضعف الربط بين هذه القصص والقصة الأصلية ، حتى أن القارىء ليجد نفسه فى حيرة عندما يحاول معرفة الارتباط ، أو وجه الشبه بين قصة « البعير والجمال » الاستطرادية ، وبين قصة « الفاتك والناسك » الأصلية ، ويصعب عليه أن يجد هذا الارتباط المتين بين قصة « امرأة الراعى » وباب « التفاخر » ولا يجد إلا « إعمال الحيلة » للوصول إلى الغاية ، وهذا عيب مشترك بينه وبين كليلة ودمنة .

ومن هذه العيوب فى باب البيان أنه أقام العنقاء والظليم والجمل والحصان خطباء ، ولكنك لا تدرى القائل إلا بشق النفس ، وذلك أنه لا يميزه حين ينتقل الكلام ، بل يمهد بكلمة « قال » فلا تعرف الفاعل لهذا الفعل ؛ وقد كان الجمل والحصان فى صف الانسان ، فاذا كان الكلام كذلك تحيرت فلم تدر أقائله الحصان أم الجمل ، والأمر كذلك مع العنقاء والظليم .

والعناوين التى وردت فى الطبعة الأخيرة سنة ١٩٢٦ ونشرها عزت العطار عناوين ليست ذات أهمية ، فكثيرا ما يهمل العناوين الرئيسية لقصص مهمة ويظهر العناوين التى لا قيمة لها ولو جاء لكل قصة بعنوان لكان فى هذا ما يوضح غموض الكتاب ، ويبين مواطن الاستطراد . وليس فى هذه الطبعة شىء يكشف عن الغموض الذى أشرت إليه سابقا .

والصناعة اللفظية فى الأبواب التى جعل حكمها تمشى على وتيرة واحدة فى أولها أو طريقة نظمها ، قد خفت فى موضعها لأنها مستقلة ، وكل بيت منها حكمة وحده ، أو مثل مستقل

وهذا الكتاب متأخر عن نظم كليلة ودمنة « المسمى نتائج الفطنة » :

(١) لأن هذا الكتاب من عمل ابن الهبارية ؛ والثانى نقل والرجل كان

قديرا فى هذا النوع من النظم ، فبدأ بنظم نتائج الفطنة ، ثم رأى نجاحه فيه فأراد أن يجرب حظه فى الاختراع على مثاله .

(٢) وإن نتائج الفطنه قد تم فى عشر ليال كما يقول ابن الهبارية وهذا « الصادح والباغم » فى عشر سنين ، والذى سهل عليه نظم كليلة أن معانيها وأبوابها وقصصها معروفة . فما عليه إلا النظم .

(٣) وإن تأثره بكليلة ودمنة ظاهر فى الاستطراد القصصى ، وفى المبادىء والآراء التى اشتمل عليها كل منهما فى المعاملات والحقوق والواجبات والنظم السياسية وأخلاق الناس ، وذلك فى نظرى قد ينهض دليلا على أن نفس ابن الهبارية امتلأت أولا بهذه المعانى من كليلة ودمنة حين نظمه ، ثم أراد تقليده فعمل هذا الكتاب على نمطه فجاء مشبها الكثير من غايات ابن المقفع من كتابه . بسبب تأثره به حين نظمه .

(٤) ثم أنه قد جاء فى المفاخرة بين الهندى والفارسى أن الهندى افتخر بوضع قومه لكليلة ودمنة ، فرد عليه الفارسى بأن هناك حكما أخرى فى غيره :

قال له الفرسى : فى سواه لو كنت ذا علم به ؛ معناه
قال ، وما رأيته ، قال أجل ذاك لنقص فيك ليس يحتمل

سمعت بالله حديث الناسك إذا راعه الليل بلص فاتك
فقال لم أسمعه فاذكر أسمع لاتنفع الأخبار إلا من يعى

فهذا التسليم بأن هناك حكما خارجة عن كليلة ودمنة لايعرفها الهندى ، إشارة إلى الاتيان بجديد ، ويغلب أن يكون ذلك بعد استيعاب كليلة فى النظم . وفيه نوع من التحدى ، وكأن نفس ابن الهبارية هى التى تتحدى الهند بعد أن نظم كليله ودمنه ، فكان « الصادح والباغم » آية ذلك التحدى . ويغلب أن يكون بعد استيعاب كليلة ودمنه فى النظم

أما باب البيان ومفاخرة الحيوان ، فأثر اخوان الصفا واضح فيه فقد

جاء فى رسالة « تنداعى الحيوانات على الانسان » :

« فقام خطيب من الانس من بنى العباس رضوان الله عليهم ، وقد دعاه إلى ذلك ملك الجن ليبين بالحجج الشرعية والعقلية أن الحيوان عبيد للناس ، فاذا عرفنا أن ابن الهبارية من نسل العباس أيضا راينا أنه أراد تحقيق ظن اخوان الصفا ، فجاء بهذا الباب بجانب مافيه من روح رسالتهم ، من حيث النزاع بين الانسان والحيوان ؛ وقد دافع عن الناس على لسان الأعرابى ، كما دافع الخطيب من الأنس من بنى العباس ، فى اخوان الصفا . ولكنهما اختلفا فى الغاية فالجن قد أقروا بفضل الناس عليهم فى اخوان الصفا ! وبلغوا هنا مرتبة المساواة بسبب اشتراكهما فى التكليف وتشابه الأصل.

وبعد فقد طال الحديث عنه لأنه ابتداع ، وهذا النوع قل فيه الابتداع عندنا فكان له نصيبه من طول الحديث عنه تلخيصا وتعليقا .

الفصل الثاني عشر

سلوان المطاع

لابن ظفـــر

جاء فى صفحة العنوان أن هذا الكتاب هو « سلوان المطاع فى عدوان الأتباع »

« تأليف الشيخ الامام العالم العلامة حجة الدين أبى هاشم محمد بن احمد ابن ظفر غفر الله له ولنا وللمسلمين أجمعين . »

وفى الصفحة الأولى من هذا الكتاب أن المؤلف كان منتهيا من تأليفه وكتابته بخطه فى شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ وقد قدمه هدية (١) لصديقه « سائد السادة ، وقائد القادة ، أبى عبد الله محمد بن أبى القاسم القرشى ، » وقد بين فى هذه المقدمة ما اشتمل عليه الكتاب من أبواب ، والطريقة التى سار عليها فى تأليفه ، فقال :

« وهو كتاب عمدت فيه إلى أمثلة استأثر خواص الملوك ببضاعتها ،

---

(١) أهدى ابن المبارية كتاب « نتائج الفطنة » الى ابن موسى سيد الكفاة ، والصادح والباغم إلى الأمير صدقه بن دبيس ، وكان كليلة ودمنة مقدما من بيدبا إلى دبشليم . وقيل ان ابن المقفع ترجمه موعظة المنصور ، وترجم ابن عربشاه كتاب « مرزبان نامه » باشارة من مخدومه الذى لا تمكنه مخالفته . وكان عمل هؤلاء تمكريما لمن وسم باسمه ، وأهدى اليه ، إلا ترجمة عبد الله بن المقفع لكليلة ودمنه . بل إن من هؤلاء السادة من دعا إلى التأليف أو الترجمة . وفى هذا رد على من يقول إنها تؤلف فى عهود الظلم والاستبداد فقط.

ومنعتهم الغيرة عليها من إذاعتها ، فتوسعت بالتعبير بألفاظى عليها ، والتخيير بعلمى لها ، والتفنن بقوى فطنتى فيها ، توسعا لا يحظره شرع ، ولا ينبو عنه سمع ... وصدرتها بآى من التنزيل المحكم ، وأحاديث عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، إلى مايلى ذلك من منثور الحكم وموزونها ، وأبكار الآداب وعونها ، فبرزت روضة للقلوب والأسماع ، ورياضة للعقول والطباع ، وسميتها « سلوان المطاع فى عدوان الأتباع » . والسلوان جمع سلوانة وهى خرزة يزعم العرب أن الماء المصبوب عليها إذا شربه المحب سلا » .

ثم قال : « وهى خمس سلوانات : السلوانة الأولى فى التفويض ، والسلوانة الثانية فى التأسى ، والسلوانة الثالثة فى الصبر ، والسلوانة الرابعة فى الرضى ، والسلوانة الخامسة فى الزهد . وأنا أرغب الى الله سبحانه وتعالى فى الامداد بالسداد ، والارشاد إلى نفع العباد » .

وتأتى أبواب الكتاب بعد ذلك جارية على هذه الطريقة التى أشار اليها فى هذه المقدمة .

فالسلوانة الأولى مثلا . تبدأ بقول : « ربنا تقدس اسمه : فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا » وقوله تقدس اسمه « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون » ، ويتلو ذلك بيان كيف تؤدى الآيتان إلى التفويض ، ثم يذكر قصة مؤمن آل فرعون وكيف عامله الله وأكرمه حين فوض أمره إليه .

ثم أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم تدعو إلى التفويض ، وآخرها قوله عليه السلام :

« إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم إنى أسلمت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ؛ لامنجى ولا ملجأ منك إلا إليك .... » . الخ

ثم « أسجاع وأبيات » فى التفويض . ثم « روضة فائقة ورياضة رائقة » وذلك إيذان بإيراد القصة أو القصص التى يقصها ، ومغزاها هو عنوان الباب :

وأول قصة أوردها كانت من التاريخ العربى ، وهى قصة الوليد بن يزيد ، لما أدبر أمره ، وأرسل خادما يأتيه برجل على هيئة خاصة ، فأتاه به ، وسأله أن يحدثه ، فأخبره بقصة جده عبد الملك لما خرج عليه عمرو بن سعيد ، فقد مر جده برجل لايعرفه ، وسأله عما يراه فى حروب الخليفة . فقال له الرجل إن حرب ابن سعيد أولى من حرب ابن الزبير ؛ لأن الأول باغ خرج على إمام بايعه . وضرب مثلا لعاقبة الباغى قصة الثعلبين ، ظالم ومفوض ، والحية وهذه أول قصة حيوان يذكرها ، وخلاصتها :

أن ثعلبا اسمه «ظالم» كان يقيم فى جحر ، وعاد إليه يوما فوجد فيه حية استوطنته ، فذهب يطلب لنفسه مأوى ، فانتهى به الطواف إلى جحر حسن الظاهر ، حصين الموضع ، فى أرض خصيبة ، لثعلب يدعى «مفوضا» ، ورثه عن أبيه ؛ فناداه «ظالم» فرحب به وأدخله جحره ، وسأله عما قصد ، فقص عليه خبره وشكا إليه الحية ، فرق له « مفوض » ثم قال له : « ان من الهمة ألا تقصر عن مطالبة عدوك ؛ وأن تستفرغ جهدك فى ابتغاء دفعه وهلكه. وإنه كان يقال :

من تهيب عدوه فقد جيش لنفسه جيشا . وكان يقال : رب حيلة أنفع من قبيلة ، وكان يقال : الموت فى طلب الثأر خير من الحياة فى العار .

وكان يقال : إذا طلبت لقاء عدوك بالقوة ، فلا تقدمن عليه حتى تعلم ضعفه عنك ، وإذا طالبته بالمكيدة فلا يعظمن أمره عندك وان كان عظيما .

والرأى عندى أن تنطلق معى إلى مأواك الذى انتزع منك غصبا ، فلعلى أنتهى إلى وجه مكيدة فى تمكينك منه ، فان أفضل الرأى ما أسس على الروية ولهذا قيل : « يفسد التدبير بثلاثة أسباب ، أحدها أن تكثر الشركاء فيه ،

فاذا كان ذلك انتشر التدبير فيه وبطل ؛ والثانى أن يكون الشركاء فى التدبير متنافسين متحاسدين ، فيدخله الهوى والبغى فيفسد . والثالث أن يملك التدبير من غاب عن الأمر المدبّر ، دون من باشره وشاهده ، فاذا كان ذلك كذلك دخله حقد المباشر الحاضر ، وفوت الفرص . ثم إن تدبير المسموعات مؤسس على ظنون الخبر ، وتدبير المبصرات مؤسس على يقين النظر »

ثم انطلقا إلى جحر «ظالم» ؛ وعادا ؛ وظل «مفوض» ليلته فى جحره يفكر فى حيلة . أما «ظالم» فقد رأى من سعة جحر «مفوض» وطيب موقعه ما جعله يطمع فى غصبه .

فلما أصبحا عرض عليه «مفوض» أن يبقى معه فى هذا المكان ، وأن يعينه على احتفار مسكن قريب منه ، فأظهر شدة الشوق والحنين إلى وطنه ، وأنه لا يستطيع احتمال الغربة ، وأن حروف هذه الكلمة مجموعة من أسماء تدل على معنى الغربة ، فالغين : من غيبة وغرر وغم وغلة — وهى حرارة الحزن والظمأ — وغم وغـــول — وهو كل مهلكة . . والراء ، من روع ورعب ورنق — وهو الكدر — ورزء — وهو الهلاك ، والباء من بلوى وبؤس وبعد وبرح — وهى الداهية — وبوار .. وهو الهلاك .

فلما رأى «مفوض» منه شدة اشتياقه إلى وطنه ، قال له : أرى أن نذهب يومنا فنحتطب حطبا ونربط منه حزمتين ، وإذا أقبل الليل انطلقت أنا إلى بعض هذه الخيام فأخذت قبس نار ، واحتملنا القبس والحطب وقصدنا إلى مكنك فجعلنا الحزمتين على بابه ، وأضرمناهما نارا ، فان خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجحر أهلكها الدخان . فقال «ظالم» نعم الرأى :

ثم احتطبا حزمتين وذهب « مفوض » ليجىء بقبس من إحدى الخيام القريبة ، فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين فغيبها فى موضع ، وذهب بالأخرى إلى جحر « مفوض » وسد الباب بها سدا محكما ، ورأى أنه بذلك يستطيع أن يتحصن من « مفوض » إذا حاصره ، وعنده طعام وشراب فى الجحر يقوى

بهما على الحصار . وعاد « مفوض » فلم يجده ، فأحسن به الظن ، وقال فى نفسه : لعله لم يرد أن يكلفنى احتمال الحطب معه . وبدا له أن يلقى القبس ويلحق « ظالما » ليحمل معه الحطب ، ثم كره أن يطفىء الريح القبس فأدخله فى باب الجحر ، فأصاب الحطب فأضرمه ، فاحترق ظالم وحاق به مكره .

فلما اطلع « مفوض » على أمر « ظالم » قال : ما رأيت كالبغى سلاحا أكثر عملا فى محتمله ! ولما أطفئت النار دخل جحره ، فاستخرج جيفة « ظالم » فألقاه ، وأوطن جحره على حال تحفظ واحتراس واستعداد لكيد الكائدين

ونستطيع أن نقرر شيئا عن قصص « ابن ظفر » من هذه القصة ، وكثير من عباراتها من كتابة سلوان المطاع ، فنقول :

إن القصة لطيفة تشوق القارىء لما فيها من حسن الربط ، والسير فى طريق الغاية الخلقية ولكنها تعنى بهذه الغاية ، وتحرص على الحديث عنها ، بدلا من ترك القصة تشير إليها ، فانقلب أديبا أكثر منه قصصيا ، وانتهز كل فرصة فى القصة كى يؤكد صفة الواعظ ويقويها فى نفس القارىء ، وقد اكتفيت ببعض تلك المواعظ فى هذا المختصر السابق للقصة . وتكاد قصصه كلها تجرى على هذا النمط ولكن هذا لم يذهب بجمالها ، واستيلائها على انتباه القارىء

ومن أظهر ما يمتاز به ابن ظفر فى كتابه :

(١) أن العناوين التى اختارها متصلة بالدين ، والقصص التى ساقها ، على تنوعها ، تدور حول المعنى المفهوم من العنوان .

(٢) وأن قصص الحيوان ، على قلتها ، كانت تأتى استطرادا تبعا لقصة أصلية مقتبسة من التاريخ ، كقصة ظالم ومفوض ؛ فى أثناء حديث الرجل مع عبد الملك . وقصة العجوز عن الحصان الذى لم يرض بمرعاه ولا بصاحبه وفر بسرجه ولجامه ، وأدركه الليل جائعا ، ومنعه اللجام الطعام . ومنعه الركاب أن ينام ، ومنعه السرج أن يتمرغ ، حتى ساءت حاله جداً .

أما العجوز فقد قصت هذه القصة على رجل كان يتطلع إلى امرأة غيره فحبسه زوجها وأذاقه العذاب ووكل به تلك العجوز ،

أما قصة الرجل الذى تطلع إلى امرأة غيره فقد قصها وزير فارسى على سيده «سابور» ليتأسى بها لما وقع فى أسر ملك الروم .

(٣) وأن ابن ظفر كان يتعرض لتفسير بعض الكلمات لغويا كما فسر «السلوانة» (ص ٥) «والتأسى» (ص ٣٠) : وألفاظ اشتمل عليها هذا الخبر (ص ٨٩) ، أو علميا «كالحرباء» (ص ١٣) أو تأتى كلمة أعجمية فيفسرها ككلمة «موبذان موبذ» (ومعنى هذا اللقب حفظة الدين ، وهو عند الفرس كالنبى (ص ٢٩) ، وكلمة «البطريك» وتفسير هذا الاسم أبو الآباء (ص ٣٩) . وقد يتعرض لحروف الكلمة فيلمح فيها شيئا كثيرا من المعانى كما سبق فى كلمة «الغربة» .

(٤) وكان تأثر ابن ظفر بالفلسفة والأخلاق واضحا فى عباراته وألفاظه، فقد كان يكثر من التقسيم المنطقى ، ويحاول استقراء النواحى التى يتكلم فيها مستخدما ألفاظ العدد التى تفيد الحصر ، وتدل على الاستقراء ويستخدم أساليب الفلاسفة والأخلاقيين وعباراتهم ومعانيهم كقوله :

«أربعة إذا أفسدهم البطر لم تزدهم التكرمة إلا فسادا : الولد والزوجة والخادم والرعية ، وضربوا لذلك مثلا القوى الأربع المرذولة ، إذا هاجت لتعدى حدودها المصلحة ؛ وهى الغضب إذا تعدى حد الشجاعة ، وحد الأنفة من الرذائل . والشهوة إذا تعدت حد الراحة من اكتساب الفضائل ؛ والحرص إذا تعدى حد الكفاية . والكسل إذا تعدى حد راحة الجسم من اكتساب المصالح ؛ فإن هذه القوى الأربع إذا تعدت هذه الحدود لم تزدها المداراة والرفق إلا هيجانا وطغيانا ، وإنما تعنى بحسم موادها .» (ص ٧٥)

(٥) يأتى فى عباراته كثير من المحسنات البديعة ، كالجناس والتورية والطباق إلى آخره . وله بعض الشعر يقوله أو يستشهد به ؛ ولكنه فى صناعته

اللفظية بعيد عن التكلف . وقصصه سهلة العبارة جميلة التركيب ، لايعمد فيها إلى البديع إلا إذا خرج عن القصة إلى الوعظ وضرب الأمثال وسوق الحكم .

(٦) وابن ظفر تلميذ « لابن المقفع » ، يجيد تقليده ، فى ضرب الأمثال التى يأتى بها فى أثناء القصة . وفى استخدام الأسلوب المنطقى الذى يكثر فيه الاستنتاج والتفصيل والتقسيم .

ولكنه يخالفه فيما عدا ذلك ، كتسمية الأبواب ، وتصديرها بالقرآن والحديث والحكم والأمثال والشعر ، وخلوها من المحاورة التى يقدمها ابن المقفع فى أول كل باب . ومجىء قصص الحيوان فيها تابعة لقصص تاريخية ، بعضها عن ملوك العرب كقصة الوليد بن يزيد (ص ١١) ؛ أو الفرس كقصة أردشير بن بابك بن ساسان (ص ١٢٠) ، أو يزدجرد بن سابور ذى الأكتاف (ص ٩٣) . ولم تهمل قصص ملوك اليونان أيضا (ص ١٠٣ ، وص ١٣١) .

كان ابن ظفر نحويا لغويا أديبا فى عصر غلب فيه الجدل والفلسفة وكان ابن المقفع أمام عينيه ، فجاء كتابه مطبوعا بكل هذه الطوابع .

الفصل الثالث عشر

فاكهة الخلفاء ـ مزربان نامه

مؤلفها ابن عربشاه [1] من أدباء القرن التاسع ، وهذه أشهر مؤلفاته :

١ ـ عجائب المقدور فى نوادر تيمور ، هو تاريخ تيمورلنك الفاتح المغولى ، بسط فيه حال ذلك الطاغية ، وما ارتكبه فى أثناء حروبه من الفظائع. وقد عاصره وسمع به . وهو مسجع العبارة طبع بمصر مرارا ، ونقل الى اللاتينية ، وطبع غير مرة فى لندن وباريس واكسفورد .

٢ ـ التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (جقمق) : فى جزءين

٣ ـ فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء : فى الأدب على السنة الحيوان نحو كتاب كليلة ودمنة ، منقولة عن مزربان نامه ، نثرا مسجعا

---

(١) هو أحمد بن محمد بن عبد الله الدمشقى الرومى ، ويعرف بابن عربشاه وبالعجمى ولد سنة ٧٩١ بدمشق ، ونشأ فيها ، وهرب مع أمه وإخوته إلى بلاد الروم ومنها إلى سمرقند ، وبلاد الخطا ، وأقام فى تركستان ، وتلقى العلوم على شيوخ تلك البلدان وغيرهم ، ثم نزح إلى المملكة العثمانية فى آسيا الصغرى ، وخدم سلطانها محمد الأول (حكم سنة ٨٠٥ ـ ٨٢٤ هـ) ، فنقل له بعض الكتب من الفارسية إلى التركية . وتولى له ديوان الانشاء ، وكتب عنه إلى ملوك الأطراف عربيها وفارسيها وتركيها ، فلما مات السلطان المذكور عاد ابن عربشاه إلى الشام فأقام فى حلب وقد تزايدت معارفه ، وانقطع للمطالعة فى الفقه والبيان ، ونزح الى القاهرة فى زمن الملك الظاهر جقمق (تولى سنة ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) حتى مات سنة ٨٥٤ فى الخانقاه بالصالحية وكان بارعا فى النظم والنثر وسائر العلوم يكتب فى اللغات الثلاث العربية والفارسية والتركية وأتقن الخط . (ج ٢ ص ١٥٥ تاريخ آداب اللغة العربية كشف الظنون ج ٢ / ١٦٣ الضوء اللامع ج ٢/١٢٦)

٤- مرزبان نامه ، كأنه مختصر لفاكهة الخلفاء أو متن له .

ويتبين من ترجمة ابن عربشاه أنه كان جوالا : ولد فى الشام ، وتعلم فى بلاد المشرق، وخدم سلطان العثمانيين واتصل بالملك الظاهر جقمق ملك مصر. فسهلت عليه هذه الرحلات أن يتصل بآداب الفرس والترك ، وكان بطبعه أديبا ونقل بعض الكتب الفارسية للسلطان محمد الأول ملك العثمانيين ، ونقل مرزبان نامه إلى العربية أيضا ، وتاريخ تأليفه لفاكهة الخلفاء يدل على أنه كان فى مصر متصلا بالملك الظاهر جقمق فقد جاء فى آخر هذا الكتاب أنه فرغ منه سنة ٨٥٨ هـ والملك الظاهر توفى قبل ذلك بعام . وأشهر كتبه التى عن الحيوان :-

(١ - فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

ولعل هذا الكتاب آخر كتاب كبير وضع فى الأدب العربى على نمط كليلة ودمنة

وقد بين مؤلفه فى مقدمته أن كثيرا من الأذكياء يقصدون إبراز بعض الحكم والعبر ، على ألسنة الوحوش والبهائم والسباع ، وأصناف الأطيار وحيتان البحار ، وسائر الهوائم ، لتميل لسماعه الأسماع ، وترغب فى مطالعته الطباع ، لأنه أسند إلى مالا يعقل ، فإذا أسند إليها مكارم الأخلاق ، وأخبر بأنها تعاملت فيما بينها بموجب العقل والوفاق . أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ؛ ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها ، وتلقتها القلوب بالقبول ، والصدور بالانشراح ، والبصائر بالاستبصار ، وانتفع بها العامة والخاصة ؛ فى السياسة والمعاملات ، لئلا يكونوا أقل من العجماوات : زيادة عما فيه من فكاهة للسامع . وسرور للنفوس .

وقد أشار فى هذه المقدمة إلى كتاب كلية ودمنة ، وسلوان المطاع ، والصادح والباغم ، فى لغة العرب ، وإلى جماعة أخرى وضعت كتبا مثلها فى

غير لسان العرب وأنه جمع فى هذا الكتاب مجموعة من الأخبار بلغته عن الرواة ، وجعلها على لسان أبى المحاسن حسان ، وجعل الكتاب عشرة أبواب، وسماه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء». أما أبواب الكتاب فهى: —

الباب الأول : ذكر ملك العرب ، الذى كان لوضع هذا الكتاب السبب

الباب الثانى : فى وصايا ملك العجم ، المتميز عن أقرانه بالفضل والحكم

الباب الثالث : فى حكم ملك الأتراك ، مع ختنه الزاهد شيخ النساك .

الباب الرابع : فى مباحث عالم الإنسان ، مع العفريت جان الجان .

الباب الخامس : فى نوادر ملك السباع ، ونديمه أمير الثعالب وكبير الضباع .

الباب السادس : فى نوادر التيس المشرق ، والكلب الأفرق .

الباب السابع : فى ذكر القتال بين أبى الأبطال الريبال ، وأبى دغفل سلطان الأفيال .

الباب الثامن : فى حكم الأسد الزاهد ، وأمثال الجمل الشارد .

الباب التاسع : فى ذكر ملك الطير العُقاب ، والحجلتين الناجيتين من العقاب

الباب العاشر : فى معاملة الأعداء والأصحاب ، وسياسة الرعايا والأحباب ؛ ونكت وأخبار ، وتواريخ أخيار وأشرار .

وقد بين فى الباب الأول على لسان الشيخ أبى المحاسن أن السبب فى وضع هذا الكتاب أن قيلا من الأقيال ؛ واسع السلطان ، كثير الأعوان ، كان له ستة أولاد ، كل بالسيادة مذكور ، وبالعلم والحلم مشهور وكان أكثرهم فضلا وعقلا ، الحكيم حسيب ،

فلما مات أبوه استولى الأكبر على الملك وأطاعته المملكة ، ثم نفس عليه إخوته ، ونازعوه فى السلطان إلا حسيبا الحكيم ، فقد أراد أن يعتزل الفتن

إلى أن تنجلى الأمور ؛ ليؤلف كتابا « يشتمل على فنون من الحكمة ، وأنواع من دقائق الأدب والفطنة . ولطائف التهذيب . وأخلاق العباد ، ويكون عونا على اكتساب مصالح المعاش والمعاد ، وتتوفر به مكارم الأخلاق والشيم . وعوالى تهذيب النفس وطرائف الفضل والحكم » . وذهب إلى أخيه فأخبره بما استقر عليه رأيه ، فاستشار الملك وزيره ، فخوفه أخاه الحكيم بما عزم عليه ، وسأله أن يجمع بينهما ليبين للسلطان دسائسه . فجمع الملك كبراء الدولة وحكماءها وأدباءها وغيرهم فى مجلس عام ، للاستماع إلى رأى كل منهما . وتكلم الحكيم حسيب فقال إنه فى مثل هذه الحكم يجب حسن الأداء ، ثم حسن الاستماع ، ثم الاستفادة ، ثم المرتبة الرابعة وهى درجة العمل ، وأما الغاية القصوى فهى الاخلاص فى العمل ، وطلب الآخرة واتباع رضا المولى .

ثم بين أن النصيحة ثقيلة على النفس والقلب ، لأن النفس مائلة إلى الفساد ، والنصيحة محض خير وبر ... والنفس مطبوعة على الأذى والشر ، فبينهما تنافر من أصل الخلقة .

ثم بين أن العقل أفضل شىء حل فى الانسان ، وأن الخلق الحسن أفضل درة فى تاج العقل ، وأن أفضل الناس بعد الرسول الكريم هو الملك الذى يحيى شريعته . وأورد بعد ذلك ما يجب على الملك من العدل والشفقة لتصلح أمور الرعية . وحذره الطيش والخفة ؛ ودعاه إلى اجتناب الإسراف والتبذير وأن يصرف المال فى وجوهه ، من غير سرف ولا تقتير . وأن يتفكر قبل أن يصدر أمرا .

ثم قال إنه أراد الاعتزال لما رأى المملكة مختلة والظلم فاشيا ، فدعاه الملك أن يستمع إلى رأى الوزير فيما قاله وما أراده ، فقال الوزير : إن ما ساد المملكة من الشدة هو بسبب فساد الناس والزمان ، وإعراضهم عن طاعة السلطان ، وما شعروا أن الملوك والسلاطين ممن اختاره الله تعالى ، وألبسه من خلع جبروته كمالا وجلالا . »

فرد الحكيم حسيب بان صلاح الرعية تابع لصلاح السلطان ، وأن على الحكام أن يعدلوا ، وألا يأخذوا احدا بجريرة أحد ، وأن يسيروا على سنة أسلافهم ؛ ومن لم يفعل ذلك أصابه ما أصاب الذئب مع الجدى المغنى . وخلاصتها أن ذئبا أراد الاغارة على قطيع فعجز عن أن يصيب منه شيئا ليقظة الراعى وتحفظه، ثم تخلف جدى فأدركه الذئب ، وفكر الجدى فى حيلة يخرج بها من هذه الورطة . فقال للذئب إن الراعى قد أرسلنى هدية إليك لأنك لم تفجعه فى شىء من قطيعه ، وأمرنى أن أغنيك قبل أن تأكلنى ، وإن صوتى للذيذ ؛ ألذ للجائع من جدى حنيذ ، وغنى فطرب الذئب ، ودعاه أن يرفع صوته ، فغنى بأعلى صوته ؛ فسمعه الراعى فأقبل بعصاه ، فلم يشعر الذئب الذاهل ، وهو لحسن السماع غافل ؛ إلا والراعى بالعصا على قفاه نازل ، فهرب الذئب متألما نادما وهو يقول .(١)

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وانما أوردت هذا النظير ، لعلنا الملك والوزير ، ليعلم أن العدول ؛ عن طرائق الأصول ، ليس إلا داعية الفضول ، ولا يساعده معقول ولا منقول... ومن يشابه أبه فما ظلم ، ويؤخذ من مفهوم هذا الحكم أن من لم يشابه أبه فقد ظلم ، خصوصا الملوك والسلاطين.

ثم يقول : « ومن ترك التأمل والافتكار ، أصابه ما أصاب ابن آوى مع الحمار فقال : أفدنا أيها المختار ، كيفية هذه الأخبار.

فقص عليه الحكيم قصة ابن آوى الذى كان يغير على بستان فشعر به صاحبه فسد عليه طرق الخلاص ، وضربه ضربا مميتا وألقى به فى الطريق ، فلما أفاق ترك البستان وقال ؛ لا خير لى فى جواره ، ولا قرب داره ، فإن سلمت هذه المرة ، فما كل مرة ، تسلم الجرة ، والأليق بالحال ، الترحال ...

---

(١) ص ١٩

والذى شق الأشداق ، تكفل لها بالأرزاق » . وذهب إلى ذئب كان صديقا لأبيه فأحسن لقائه ، وعزم على الاصطياد ليطعمه ، فقال الثعلب : « لا تتعب فأنا أذهب ، فلى صاحب حمار ، كأنه ليس مستعار ، وذهب ليأتيه به » ولما وجه ابن آوى لطلب الزبون ، انتهى فى سيره إلى طاحون ، فرأى حمارا قد آلمه العمل ، ثم تركه أصحابه فذهب إلى المرج يرعى ، فتقدم ابن آوى اليه ، وسلم سلام معرفة عليه ، ... وسأله عن الأهل والأولاد ، فقال له : أى أهل وولد ، وأنا فى هذا البؤس والنكد ... هذا يركب وهذا يضرب ... وهذا يحمل حمله ، وهذا ينخس بالمسلة ... فكانى فى مشاق كما قيل :

ولا يقيم على ضيم يراد به ... إلا الأذلان عير الحى والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد

فاظهر ابن آوى التوجع ، وزين له الفرار إلى أجمة آمنة طيبة المرعى ، فرضى وسار معه مسرعا . فلما قربا من الأجمة أبصر الذئب ففكر فى الحيلة ، فقال للثعلب . لقد جئت قبل أن أودع جيراني ، وأبت مالى من التعلقات ، وأريد أن أرجع لأسوى أمورى هناك ، وأهم مايشغلنى أننى تركت هناك وصية من أبى ، لا أستطيع الهدوء بغيرها فى يقظة ولا منام . وألوى راجعا فرجع معه الثعلب ، وظل الحمار يحدثه حتى وصلا إلى الضيعة ، فرفع الحمار صوته بالنهيق ، فسمعته الكلاب ، فخرجت إلى لقائه فرأت ابن آوى وقد أرد المهرب ، « فاحتوشته وانتوشته ، واختطفته واقتطفته ، ووزعته ومزعته ومرشته وقرشته ، فلم تبق منه عينا ولا أثرا . »

ثم قال الحكيم حسيب . « وإنما أوردت هذا المثال وعرضته على الرأى العال ، ليعلم أن الاغترار بالكلام محال ، والإصغاء إلى الحكايات والقول البطال ، من غير تنقل من ألفاظها إلى معانيها ، وتأمل فى مقاصدها ومخاويها . والاعتماد على القضايا المزخرفة ، والركون إلى الأمور المسفسفة ، لا يفيد سوى الندم ، وزلة القدم ، والأصل فى الولايات والمناصب ، التفكير

فى الخواتم والتأمل فى العواقب .

عندئذ أدرك الملك والوزير فضل الحكيم حسيب ، واعترفا له بسداد الرأى ، وحكمه الملك فى ولايته ، وولاه على الحكام والقضاة ، وبسط يده فى الأقاليم وأطلق لسانه فى التعليم ، ، فنهض الحكيم من مجتمعه . . . وامتثل المراسيم الشريفة . واشتغل بتأليف هذه الحكم الظريفة ، وترتيبها بالعبارات اللطيفة . »

وتأتى بعد ذلك بقية أبواب الكتاب كما أوردناها فى المقدمة . وهذه خلاصة أحد الأبواب وهو الباب السابع فى ذكر القتال بين أبى الأبطال الرئبال ، وأبى دغفل سلطان الأفيال .

قال الشيخ أبو المحاسن ، من ليس له فى الفضل مساو ولا مواسٍ » : إن الملك سأل أخاه الحكيم حسيبا أن يقص عليه قصة القتال بين الأسد والفيل فروى له أن ملكا من الافيال كان له رعية وجنود وملك كبير ؛ فى جزيرة ، فى بعض أطراف الهند ، وكان قد رغب فى النزهة ، فعلم بمكان طيب يحميه أسد هصور ، فحبب إليه بعض رعيته أن يذهب إلى هذا المكان ، وأن يجلى الأسد عنه ، وكان للفيل أخوان اسمهما « المقبل والمدبر » وهما وزراه ، فاستشارهما فأشار عليه أخوه « المقبل » ألا يفعل ، فذلك ظلم وسوء جوار ، والأسد مالك صعب وسلطان خطير .

واستشار أخاه الثانى « المدبر » فقال إن الأسد حيوان ظلوم ، ويجب تخليص رعيته منه . وأن نفقات مملكة الفيل تزداد ، وسكان مملكته يكثرون ، ولا بد من مجال حيوى لهم ، يفى بنفقات المملكة التى تكثر يوما بعد يوم . وضرب مثلا قصة تيمورلنك الأعرج الدجال ، ، فسأل أبو مزاحم « الفيل » أخاه عديم المراحم . عن تلك القضية فأخبره بما فعل تيمورلنك من غزو وسلب ونهب ، حتى ظفر بما تطلعت إليه همته العالية .

فمال الفيل إلى رأيه وطلب من أخيه « المقبل » الاستعداد ، فحاول أن

بثنيه عن عزمه فلم يفلح ، وجمع الفيل جموعه وأعد عدته ، فاطلع على هذه الأحوال غراب يكنى أبا المرقال كان له وطن وولد ، وسكن فى ممالك الأسد ، لكنه قدم جزيرة الأفيال للتنزه ، على سبيل التفرج والتفكه ، فعاد إلى الملك وأخبره بما رأى ، فجمع الاسد مجلسا من رئيس الاسود والنمور والثعالب والذئاب : فأشار رئيس الاسد بالصلح ، وأشار رئيس النمور أبو مرسال بالمراسلة للصلح حتى يستعدوا . فإذا وقعت الحرب لم يؤخذوا على غرة ، وأشار الذئب بالتحف والهدايا ليكف عنهم الافيال ، ورأى الثعلب إعمال الفكر والحيلة ، فاقترح أن يرسل رسولا يعرض الصلح ويتجسس ، فان تم الصلح . وإلا عاد فأخبر قومه بما أعد الافيال لهم . فرضوا برأيه . واختاروا لذلك ذئبا ، فذهب فخوف الفيلة بطش الأسد وجنوده ، فثار الفيل وهاج ، وأرسل رسولا إلى الأسد يخيره بين التسليم والفرار ، فغضب الأسد غضبا شديدا ، وكاد يقتل الرسول .

واستشار أبا الحصين « الثعلب » فقال له : لاتخش بأسهم ، ولا تغتر بضخامتهم ، فإنهم أهون مما تظن ، وبحسن التدبير ، ومساعدة التقدير ، يتم لنا النصر .

ثم أخبره الثعلب « أن الوهم قتال ، والعاقل المدبر يحتال ، كما بلغ الحمار بعقله ما أراده ، فسأله ملك الأساد عن حكاية أبى زياد « الحمار »

فأخبره أن حماراً كان قد تركه أصحابه بعد ما شاخ ، فعاد إليه شبابه وقوته من طيب المرعى والفراغ ، وعلا صوته ونهيقه ، فخافه أسد كان يقيم قريبا منه . وفى ذات يوم كلمه وطلب منه طعاما ، فدعاه الحمار إلى منزله . فصادفهما نهر ، فقال له الأسد . أنا أحملك فى الذهاب ، وتحملنى فى الإياب . وفى عودتهما أنشب الحمار مسامير نعله فى الأسد فآلمه ، وظن به القوة والبطش ووهم أن قوة الحمار أشد من قوته ، فترك له البلاد .

ثم أرسل (الأسد) أبو الضراغم إلى (الفيل) أبى مزاحم برسالة مع

الذئب حدثه فيها عن سبب وضع علماء الهند للشطرنج ، وأن صورة الرقعة صورة المملك ، وأنها قسمت بالسوية ، وجعل لكل قسم جنس من الرعية ونوع من السير لا يتعداه ، ومكان لايتخطاه ، وحذره أن يجور ويميل فيصيبه ما أصاب أصحاب الفيل ، حين أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل .

ولكن الفيل لم ينته عما أقدم عليه ، فغلب هو وجنوده ، وانتصر الأسد وأعوانه ، وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام . من آذى جاره ورثة الله داره . والله لايهدى القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد خير خلقه ، وآله وصحبه وسلم أجمعين ،

والطريقة التى اتبعها الحكيم فى تأليف أبواب الكتاب أن أورد حكايات ونوادر عن أشهر ملوك الأمم فى أيامه ، أو الشعوب المعروفة فى زمانه ، فأورد نوادر ملوك العرب والعجم والأتراك فى الأبواب الثلاثة الأولى ، فلما فرغ منها أورد مباحث زاهد الأنس العالم ، مع شيطان الجن الآثم . فلما فرغ أمره أخوه أن يقوى الطباع ، بذكر نوادر الوحوش والسباع . فلما أنهى الحكيم حسيب كلامه ، وذكر من النصائح والحكم عن ملوك العرب والترك والعجم ، ومن مباحث الجن والإنس ، استطرد إلى فوائد البهائم والوحوش ، ورقم فى دار ضرب البلاغة من حسن الصياغة والرقوش ، ما قعد له من زواهر كلامه على سكة دينار الفصاحة أحسن النقوش ، فافتخر أخوه الفيل بوجوده [1] وقال له : قد أفدت حكم سائر الحيوان ، فكرر علينا من حكم منطق الطير ، ففعل ، وذلك فى الباب التاسع والعاشر .

« فلما انتهى الحكيم فى مقترحه ؛ وما قصده من بيان محاسنه وملحه » .

---

(١) ص ١٤٩

نهض الوزير وقبل قدميه ، واعترف له بالفضل المنعم عليه ، وأنه مالك أزمة الإنشاء ؛ وملك الكلام يصرفه كيف شاء ، وأنه شيخ المنقول وأستاذ المعقول . وأما أخوه الملك ففرح به ، واتخذه فى مهام أموره ، مقام أميره ؛ ودعاه أن يسعى فى الصلح بينه وبين إخوته ففعل ؛ وانتهى الكتاب .

وهذا كتاب آخر من وحى كليلة ودمنه ، ألف فى القرن التاسع الهجري واقتدى مؤلفه بابن المقفع أو بالحكيم بيدبا ، وجعل المواعظ فيه على ألسنة الحيوان والطير ؛ وجعل الحكيم حسيبا يقف من أخيه موقف الموعظه ؛ فلا يرضى الوزير بذلك حتى يسمع ما يرغمه على الاعجاب ؛ كموقف دبشليم من بيدبا ؛ فلما انتهى من مواعظه وآدابه وما رسمه فى كتابه من حكم وسياسة للعامة والخاصة ، رضى عنه الملك وجعله مقدما فى دولته ، ومستشارا فى أموره ؛ فأصلح بينه وبين إخوته ، كما أصلح بيدبا بين الملك دبشليم وبين رعيته .

لكن بيدبا كان أشجع من الحكيم حسيب ، فأنه عرض نفسه لغضب دبشليم ، ولم يقصر فى تقديم النصيحه مع علمه ببطش الملك . أما حسيب فقد أراد أن يعتزل ، ولولا أنهم دعوه وناقشوه ما ذاعت آراؤه . ولعل حقوق الأخوة هى التى جعلت الموقف اكثر اعتدالا مما كان بين دبشليم وبيدبا ، ولعل ابن عرب شاه راعى ذلك ؛ فدل به على دقة ملاحظته الموقف ، وما يتطلبه من معاملة .

وقد اقتفى اثار كليلة فى جعله قصصا على ألسنة الحيوان ؛ وفى الاستطراد من قصة إلى قصة ؛ وفى ضرب الامثال ، وايراد القصص لتفسيرها ، لتكون هذه الامثال بمثابة الربط بين القصة الاصلية وفروعها .

ولكنه زاد على ما فى كليلة ودمنه أن رتب ابوابه على النحو الذى أشرنا اليه الذى يمكن أن نقسمه أربعة أقسام : حكايات الملوك ؛ حكايات الانس

والجن ، حكايات الوحوش والبهائم ؛ حكايات الطير . وأكثر من الحكايات التاريخية عن ملوك فارس والترك والمغول) ومن الصفات الظاهرة فى هذا الكتاب :

١ — أنه جعل الحكايات على لسان راو ، هو الشيخ ابو المحاسن حسان، يأتى اسمه فى أول كل باب ، فيحدثنا عن الحكيم حسيب وأخيه الملك فى ذلك المجلس ، وتارة يقول لنا أبو المحاسن إن الحكيم هو الذى تكلم ، وتارة يخبرنا أن اخاه هو الذى اقترح عليه الموضوع الجديد . وربما كان متأثرا فى هذا بطريقة المقامات .

٢ أما الغاية الخلقية من الباب فلم يلتزم إيرادها فى كل باب ، وإن التزم ذلك فى كل قصة جزئية ، فقد ختم الباب السادس بقوله : «وفائدة هذه الحكايات» ، والباب الثامن بقوله : «وفائدة هذا المثل الجارى بين الدب والجمل معرفة فضيلة الأمانة ؛ ووخامة المكر والخيانة» . وقد يقول هذه الفائدة ضمنا ، كما ختم الباب السابع بقوله : «وظهر سر قوله عليه الصلاة والسلام : «من آذى جاره ورثه الله داره»

أما الختام الذى التزمه فى آخر كل باب فهو : الحمد لله ،والصلاة والسلام على رسول الله ، بصور متعددة ، وإن كانت معانيها متحدة .

٣ - وقد كثر فى كل باب أن يذكر الحيوان بكنيته أو بلقبه :فيسمى الأسد أبا الأشبال ، والرئبال ، وأبا الحارث والحيدرة . ويسمى الفيل أبا دغفل وأبا مزاحم ، والحمار أبا زياد ، والثعلب أبا المرقال ، والثعلب أبا الحصين ، والفأرة أبا راشد ؛ والدب أخا نهشل ؛ والنمر أبا مرسال ،والجمل أبا أيوب ، وهكذا . وربما كان ذلك من تأثير العصر الذى كثر فيه استخدام الألقاب والكنى وخلعها على الملوك والوزراء والفقهاء والكتاب . وغيرهم من كل من له عمل فى الدولة ، وليست البهائم والطير أقل قدرا فى

هذه الحكايات .

٤ — جعل الكتاب معرضا للعلوم والمعارف المشهورة فى زمانه . فاورد فيه مسائل فلسفية وحكايات تاريخية . ومشكلات فقهية ؛ وأحكاما منطقية ، ومناقشات كلامية .

٥ — أما القواعد التى أوردها فى الآداب والأخلاق ، والحكم التى جاء بها لاصلاح المحكومين والحاكمين ، فى معاملتهم الخاصة والعامة : فمستقاة من الدين ، ومن فلسفة الأخلاق ، ومن الآداب السلطانية . وقد جاء منها الكثير الذى شمل كل أنواع المعاملات الانسانية تقريبا : كآداب العبد مع ربه وآداب الحاكمين والمحكومين ، والأصدقاء والأولاد والزوجة ، وتدبير الأموال ، وقيادة الجنود وحقوق العلماء ورعاية الجار ، وحسن تدبير المال ؛ وهكذا .

٦ — أما طباع الحيوان فقد راعاها فى قصصه إلى حد كبير ، ولكنه قد يخرج عليها فى بعض القصص ، كقصة الحمار الذى غر ابن آوى ، والأول مشهور بالجهل والثانى مشهور بالمكر . وجدى الراعى الذى غر الذئب فغنى له حتى سمعه الراعى ، والاول مشهور بالغفلة والثانى بالخبث والغدر .

٧ — أما أسلوبه فقد كان صورة صادقة لأسلوب القرن التاسع هـ الذى ظهر فيه الكتاب ، ومن أظهر صفاته الصناعة اللفظية كالسجع والجناس وتكلف التشبيهات والكنايات إلى حد مملول . وقد تقدمت أمثلة ذلك .

وقد استخدم فيه مصطلحات العلوم والفنون بكثرة ، واقتبس من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والأشعار القديمة والحديثة ، وترى فيه الامثال والكلمات العامية المصرية مثل : كل شىء تزرعه ينفعك إلا ابن آدم إذا زرعته ، يقلعك . عرف الكلب بيت العميا . ما كل مرة تسلم الجرة . من خرجت قرعته

كسرت قرنته . ذهبت السكرة وجاءت الفكرة . الزبون . يرطلول، عليه : ما كان مستعملا فى زمانه . وما زال بعضه مستعملا إلى اليوم .

وهذا الكتاب ـ أهم الكتب التى ظهرت فى العصور التركية تقليداً لكليلة ودمنة . ولم يتخلص من القيود اللفظية التى أثقلته، ومن الاستطراد الذى ورثه عن كليلة ودمنة، واستقلت قصصه، لكان من أهم الكتب التى ظهرت فى خرافات الحيوان

كتاب مرزبان نامه

أما كتاب «مرزبان نامه» فيعتبر أصلا لفاكهة الخلفاء . ويقول ابن عربشاه فى مقدمته (ص٥) : «وقد وضع فى ذلك ـ قصص الوحوش والبهائم وسائر الطير والسباع ـ كتاب يسمى بمرزبان نامه . مترجم باللسان التركى عن الفارسى ، فأشار إلى المخدوم الذى لا يمكننى مخالفته أن أترجمه باللسان العربى فامتثلت أمره وترجمته ، وقد جعله واضعه ثمانية أبواب .

الباب الأول : فى تسميته وسبب وضعه .
الباب الثانى . فى ذكر العالم والعفريت .
الباب الثالث : فى ذكر أحوال الثعلبين .
الباب الرابع : فى ذكر الكلب المسمى بالذكى والعتر
الباب الخامس : فى ذكر السبع والأفيال .
الباب السادس : فى ذكر وقائع الجمل والأسد .
الباب السابع : فى ذكر ملك الطير والحجلتين .
الباب الثامن : فى معاملة الأحباب .

ونرى من هذه الأبواب أن كتاب فاكهة الخلفاء يزيد بابين هما الثانى والثالث فيه ، أما أسماء هذه الأبواب فتكاد تكون واحدة ، إذا حذفنا مقتضيات السجع فى فاكهة الخلفاء .(انظر ص ١٧٨ من هذا الكتاب)

وأما ماتنطوى عليه هذه الأبواب من المعانى والحكايات والغايات الخلقية

فتشابه فى كليهما تشابها كبيرا .

والفرق بين الكتابين شكلى ، وإن كان الراوى أبو المحاسن حسان ، وبعض حكايات فاكهة الخلفاء ليس له نظير فى كتاب « مرزبان نامه » . ويكثر فى فاكهة الخلفاء السجع المتكلف المملول ، والجزل والركيك والأمثال العامية . ولا تجد إلا قليلا من ذلك فى مرزبان نامه .

ويشتركان فى الصفات العامة ، والمقاصد التى يرمى إليها كل منهما كاصلاح الحاكمين بالمواعظ وضرب الأمثال ، وبيان مالهم وما عليهم ، مع شىء من التلطف والتملق عند الحديث عنهم أو إليهم ، والاكثار من الأمثال والآيات والأحاديث ، وشواهد الشعر والنثر فى القديم والحديث ، واستخدام طرق الفلاسفة والمناطقة والفقهاء والصوفية ، فى أثناء الحديث على لسان الناس والحيوان ، ممن يأتى ذكرهم فى الكتابين ؛ فكثرت المصطلحات العلمية وأساليب العلماء لذلك .

وهذا بعض ماورد فى الباب الأول من مرزبان نامه على لسان مرزبان لأخيه :

يجب على الملك أن يصغى إلى نصيحة الذى قد جرب منه الصدق والمودة وعلم منه محض النصيحة ، ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها ، فان الناصح المشفق مثل الحكيم الحاذق : إذا اشتكى إليه المريض مرارة فمه ، فانه يصف له دواء مرا ، فإنه ما وصف له الدواء المر إلا ليعيد إليه حلاوة فمه . ولا يستحقر النصيحة ولا الناصح ، فان سليمان عليه السلام ، من أجل سادة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ، وهو أحد من ملك الدنيا ، وحكم على الجن والأنس والطير والوحش والريح - استشار نملة حقيرة فنجح فى أمره ، ولما خالف وزيره آصف بن برخيا فى قضية ابتلاه الله تعالى ، وسلب ملكه حتى صار أجيرا لسماك على ما قيل .»

وهذا ما أنا فى ذاكرته الآن فى هذا الموضوع نفسه [١]

« وعلى الملك أن يصغى للنصيحة : كمن مودته صحيحة ، وقد جرب منه الصدق ، وعلم منه الاخلاص فى النطق . لاسيما إذا كان ذا عقل صحيح . وود صريح . ولا ينفر من خشونة النصيحة ومرارتها . . . فان الناصح المشفق كالطبيب الحاذق ، فان المريض الكئيب ، إذا شكا إلى الطبيب ، شدة ألمه ، من مرارة فمه ، يصف له دواء مرا . فيزيد حرارته حرا ، فلا يجد بدا من شربه ، وان كان فى الحال ينهض بكربه ؛ لعلمه بصدق الطبيب ، وأنه فى الرأى مصيب ، وما قصد بالدواء المر ، زيادة الضر ، وإنما قصد بألمه ، عودة الحلاوة لفمه . ولا يستحقر النصيحة ، إن كانت صادقة صحيحة ؛ ولا الناصح ، خصوصا الرجل الصالح ، فان سليمان وهو من أجل الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ، وأحد من ملك الدنيا ، وحكم على الجن والانس والطير والوحش والهوام ، استشار نملة حقيرة فنجح فى أمره ، وخالف وزيره آصف برخيا فابتلى بفقره وسلب من جميع ما ملك ، وصار كما قيل ، أجيرا لسماد السمك . [٢]

والنصان يوضحان ما تقدم .

أما الكتابان فأرجح أنهما كتبا للسلطان الظاهر « جقمق » ، من مماليك قايتباى ، فما كان عهده من خير العهود فى تاريخ المماليك ، وهم الذين كثرت فى أيامهم المظالم ، وسوء أحوال الحكام ، وحوادث القتل والغصب ، وفداحة الضرائب ، ومكايد القصور . ودسائس القواد والولاة .

---

(١) ص ٩ فكاهة الخلفاء

(٢) قصة سليمان واشتغاله أجيرا لسماك أو طباخا ، قصة يهودية أتى بها الكشاف عند تفسير قوله تعالى « ولقد فتنا سليمان » فى صورة (ص) وهى موجودة فى دائرة المعارف اليهودية مادة : سليمان

غير أن السلطان جقمق كان حاكما قويا . وقد مدحه موير (Muir) [1] فقال عن حكمه إنه كان « خير حكم بالنسبة للمماليك ، وإنه كان « نموذجا حسنا في إسلامه ، وأنه أحب العلماء ورغب في مصاحبتهم . »

كل هذه الظروف ترجح أنه هو المراد بقول ابن عربشاه في مقدمة مرزبان نامه (ص ٥) « فأشار إلى المخدوم الذي لا تمكنني مخالفته أن أترجمه باللسان العربي »

أما فاكهة الخلفاء فقد جاء في ختامه أنه انتهى من تأليفه « سنة ٨٥٨ هـ » بعد موت السلطان جقمق بعام . وقد ألفه على هذه الطريقة الرمزية التي ضرب فيها الأمثال . وأتى بالقصص — وأكثرها من الحيوان — عسى أن يكون في ذكرها مايلين قلوب أولئك الحكام الظالمين ، ويهديهم سبيل الرشاد . وكان له في اخلاق السلطان جقمق ؛ وتسامحه ، وحبه للعلماء ، خير مشجع على الجهر بهذه النصائح الرمزية ، تعليما للملوك وتأديبا للرعية .

---

(١) ص ١٤٥ تاريخ دولة المماليك في مصر ترجمة محمود عابدين وسليم حسن .

الفصل الرابع عشر

« قصص الحيوان فى ألف ليلة »

« ألف ليلة وليلة » كتاب يشتمل على قصص متنوعة ، بعضها له أصل تاريخى ، وبعضها من عمل الخيال والاختراع ، وبعضها مصرى وبعضها عراقى وبعض حكاياته وارد من الهند ، وبعضه منقول عن الفرس وبعضه من أصل عربى (١)

وقد كان للحيوان فيه قصص مهمة . فقد بدأ الكتاب بالحديث عن بطش الملك « شهريار » بنسائه وجواريه بسبب خيانة زوجته ، وصار يتزوج كل ليلة امرأة ثم يقتلها ، حتى ضج الناس ، وهربوا من المدينة فأمر وزيره أن يجد له زوجة فلم يجد ، وعاد الوزير إلى بيته محزونا مغتما . وعرفت بنته « شهرزاد » السبب ، فقبلت أن تتزوج من الملك ، فإما أن تعيش ، واما أن تكون فداء لبنات المسلمين ، وسببا لخلاصهن من بين يديه . وأصرت ، فحذرها أبوها ، وقال لها : « أخشى عليك أن يحصل لك ما حصل للحمار والثور مع صاحب الزرع . فقالت له : وما الذى جرى لهما يا أبت ؟ فقص عليها أبوها الحكاية وخلاصتها : أن تاجرا من الريف كان يعرف لغة الحيوان والطير ، وكان عنده فى داره حمار يكرمه ، وثور يرهقه . فسمع الثور يوما يشكو إلى الحمار مشقة العمل . فنصح له أن يتمارض ويمتنع عن الأكل والشرب حتى يستريح ، ففعل . فلما سمع صاحبهما بمرض الثور — أو تمارضه — أمر أن يحل الحمار محله . فلما ثقل الحمل على الحمار ذهب إلى الثور وقال له : لقد سمعت صاحبنا يفكر فى بيعك للجزار إن لم تقم . فلما سمع هذا الكلام شكر الحمار

(١) فى أصول الأدب للزيات ص ٥٠

وقال له فى غد أسرح معهم . ثم أن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المدود بلسانه . كل ذلك وصاحبهما يسمع كلامهما . وأصبح الثور نشيطا معافى جدا فضحك صاحبه لما رآه حتى استلقى على قفاه من الضحك . فسألته زوجته عن السبب ، فأخبرها أنه سر ؛ إذا أفشاه مات . فأصرت على أن تعلم السبب ؛ فجمع أولاده والشهود والقاضى ، وجمع أهله وأهلها وأهل حارته ، وأخبرهم بأمرها ، وأنها تلح عليه أن يفشى السر ، وفى ذلك هلاكه . فأصرت على أن تعلم السبب . فرضى زوجها وسلم أمره لله .

ثم إن التاجر ترك هذا الجموع وذهب ليتوضأ قبل أن يموت . وكان عنده كلب وديك تحته خمسون دجاجة . فسمع الكلب يلوم الديك على فرحه وسروره فى اليوم الذى سيموت فيه سيده . فسأله ، وكيف ذلك الأمر ؟ فأخبره بالقصة . فقال الديك . والله ان صاحبنا قليل العقل . أنا لى خمسون زوجة أرضى هذه وأغضب هذه ، وهو ما له إلا زوجة واحدة ، ولا يعرف صلاح أمره معها ! فما له لا يأخذ بعضا من عيدان التوت ثم يدخل إلى حجرتها ويضربها حتى تموت أو تتوب ، ولا تعود تسأله عن شىء له . فلما سمع التاجر كلام الديك عاد وقد عزم على ضربها .

ثم قال الوزير لابنته : ربما فعل بك مثلما فعل التاجر بزوجته ، فسألته عما فعل ، فقال : إنه أدخلها حجرة ليقص عليها الخبر ثم يموت ، ولكنه لما خلا بها فى الحجرة ضربها ضرباً شديداً بعيدان من التوت حتى أغمى عليها ، فقالت له تبت ، ثم إنها قبلت يديه ورجليه ، وتابت وخرجت هى وأبوها وفرح الجماعة وأهلها ، وعدوا فى أمر الأحوال إلى الملمات .

وهذه الحكاية فى المقدمه ، ويرجح أن هذه المقدمة من أصل هندى وقصة الحمار والثور هذه شبيهة بقصص كليلة ودمنة

بجانب ما فيها من إخراج قصة من أخرى ومشابهة الأسلوب فى القصص الهندى ، فان من لوازم القاص الهندى أن يقول : لا تعمل ذلك ، وإلا أصابك

ما أصاب فلانا ، فيسأله السامع : وكيف ذلك . فيجيب القصاص على هذا السؤال برواية القصة .... وقولهم فيها « كيف كان ذلك » ترجمة حرفية لهذه الجملة السنسكريتية « كاثات اثات . »[١] .

أما أثر القاص المصرى فى هذه الحكاية فواضح فى أسلوب كتابتها والفاظها العامية فيما تقدم .

ثم أن المغزى فى هاتين الحكايتين ظاهر . فإن الحمار قد آذاه قوله ، ورأى لغيره ولم ير لنفسه[٢] . وأما الديك فقد كان مرشداً إلى صلاح الأحوال الزوجية بطريقته العنيفة التى جاءت بثمرتها مع الزوجة .

وهذه قصة وردت ، فى قصة الملك يونان والحكيم روبان ، فى الليلة الخامسة إذ قال الملك لوزيره : أنت دخلك الحسد من أجل الحكيم فتريد أن أقتله وبعد ذلك أندم ، كما ندم الملك السندباد على قتل البازى ، ثم أخبره بأن السندباد خرج للصيد ومعه هذا البازى ؛ وطارد غزالة حتى ظفر بها فى مكان قفر ، وعطش الملك ، وعطش الحصان ، فلم يجد الملك إلا شجرة ينزل منها ماء مثل السمن ، فأخذ طاسة وملأها منه ؛ فلطش البازى الطاسة فقلبها ، وكرر ذلك . فضربه الملك بالسيف ، فرمى أجنحته ، فصار البازى يقيم رأسه ويقول بالإشارة : أنظر الذى فوق الشجرة ، فرفع الملك عينه فرأى فوق الشجرة حية ، والذى يسيل سمها ، فندم الملك على قص أجنحة البازى ؛ ومات فحزن عليه حزناً شديداً ؛ لأنه جازاه على الاحسان بالأساءة وندم حيث لم ينفع الندم .

وفيه من القصص الشبيهة بكليلة ودمنة باب خاص عنوانه « حكاية تتعلق

---

(١) Ancient India and Indian Civilization P. 325
وفى أصول الأدب للزيات .

(٢) ص ٣١٧ كليلة ودمنة باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

بالطيور ، وقد مهد الكتاب لذلك بقوله ، ثم أن الملك قال لشهر زاد : أشتهى أن تحكى لى شيئا من حكاية الطيور . فقالت حبا وكرامة .

وقصت عليه قصة الطاوس الذى كان يأوى إلى جانب البحر مع زوجته ثم هربا خوفا من الوحوش والسباع . فنزلا بجزيرة وأكلا من ثمرها وشربا من أنهارها . ثم أقبلت عليهما بطة فزعة و حذرتهما ابن آدم ، فنزلت إليها زوجته ، ورحبت بها وأخبرتها أن ابن آدم لايستطيع أن يصل إلى هذه الجزيرة . فأخبرتها البطة أنها رأته فى المنام . وأن مناديا ناداها فحذرها منه ومن حيله وخداعه ، وأنها قامت من نومها مذعورة ، ولقيت شبلا فاستجارت به فقبل حمايتها ، ثم أخبرها أن والده يحذره ابن آدم . وأقبل عليهما حمار فزع وأخبرهما بما يلقاه من ابن آدم ، وأنه هارب منـــه ، وقد تركه قبل اشراق الشمس .

ولقوا بعد ذلك حصانا فأخبرهم بما يصيبه من الآدمى وأنه قد فارقه فى نصف النهار . وظهر لهم جمل قص عليهم قصته مع ابن آدم ، وقال أنه فارقه وقت الغروب . وأراد الهرب فاستبقاه الشبل قائلا : تمهل قليلا ياجمل حتى تنظر كيف أفترسه وأطعمك من لحمه ، وأهشم عظمه وأشرب من دمه . قال له الجمل : يا بن السلطان أنا خايف عليك منه .

وقد تحقق ظن الجمل ، فقد جاءهم نجار من بنى آدم ، فصنع صندوقا واحتال على الشبل حتى أدخله فيه . وألقى به فى حفرة وأحرقه . (١)

وسمعت الطاوسة كلام البطة فسرت عنها وقالت لها « إن كان على جبيننا شىء نستوفاه » . (٢)

ثم ظهر لهما غزال وأكرما مثواه . ثم نزل بالجزيرة قوم من بنى آدم

---

(١) ص ٢٤ ج ٢ (٢) ص ٢٦ ج ٢

فصادوا البطة وهرب الظبي والطاوسة . فصاحت البطة قائلة « لم ينفعني الحذر من القضاء و القدر » .

واجتمع الظبي والطاوسة بعد ذلك فحذرها مكر ابن آدم وخداعه فقالت له: « ما قتل البطة غير تركها التسبيح ولقد قلت لها انى أخاف عليك من تركك التسبيح . لأن كل ما خلقه الله يسبحه ، فمن غفل عن التسبيح عوقب بهلاكه » .

ويقص قصصا أخرى عن الحيوان . اليفه ووحشيه . ويفرغ منها بمثل هذه النتيجة « لا ينفع الحذر من القدر » ويعرض فى أثناء هذه القصص كثيرا من الحكم والأقوال الوعظية التى فيها رجوع إلى الله ، أو دعوة إلى حسن سياسة ، أو ارشاد إلى خلق قويم . أو شبه ذلك

ونعود فى الجزء الرابع فى حكاية « ورد خان » ابن الملك « جليعاد » إلى حكايات كليلة ودمنة معدلة بالزيادة أو النقص . وموشاة بالحكم والآداب ومتبوعة أو مسبوقة بالعبارات المألوفة عند الانتقال إلى القصص الحيوانية

وهذه القصص الحيوانية تأتى استطرادا فى «ورد خان» وان شغلت الجزء الأكبر منها . ويغلب على الظن أن القصة الرئيسية وضعت لجمع هذه القصص الحيوانية ، وضم بعضها إلى بعض من أجل غاياتها الخلقية .

فى القصة أن جليعاد كان ملكا عقيما من ملوك الهند ، وأن الله رزقه ولدا ، وأخبره المنجمون أنه سيحكم بالبطش والقسوة أولا ثم يصلح حاله ، وقد كان .

وإذا رجعنا إلى القصص الحيوانية فى ألف ليلة وجدناها أشكالا منها:

١ — ما هو شبيه بكليلة ودمنة . كالقصص الأولى فى مقدمة الكتاب ومنها قصة التاجر وحماره وثوره وكلبه وديكه . وقصص الحيوان والطير فى الجزء الثانى . وقصص ورد خان فى الجزء الرابع .

٢ - ومنها قصص يخترع فيها الحيوان من اللحم والدم ارضاء لخيال الانسان ورغبته فى أن يصعد الى طبقات الجو ، على بساط الريح أو بأجنحة الطير ، أو على مراكب يخترعها وتسبح به فى السماء ، ، كحصان الأينوس فى « حكاية الحكماء أصحاب الطاوس والبوق والفرس » (ج ٢) ، وهى مأخوذة من قصة فشنو والنساج التى تقدمت (ص ١٠٧)

٣ - ومنها حكايات عن عجائب المخلوقات من الحيوان الغريب الشكل فى قصة « حاسب كريم الدين » وقصص السندباد . (ج ٣)

هذا عدا ما اشتملت عليه من قصص السحر التى تحول الانسان فيها حيوانا أو جمادا ، ولا شك أن اختلاف أزمنة هذه القصص ومصادرها ، هو السبب فى هذه المجموعات المتباينة من القصص الحيوانية فى ألف ليلة وليلة . ومن هنا رأينا اختلافها عن قصص الحيوان فى كليلة ودمنة ومقلديه ، وفى قصص اخوان الصفاء وابن الهبارية .

الفصل الخامس عشر

الخرافات الحديثة

تأثرت الخرافة الحديثة عندنا بالخرافة الغربية ، وتأثرت بعلوم التربية الحديثة - وأكثر رجالها من العلماء الغربيين - وسلسلة نسب هذه الخرافات الغربية ترجع إلى اليونان ، وأشهر رجالها عندهم هو ايسوب الذى سبقت الاشارة اليه (ص ٣٦ من هذا الكتاب) ، وجاء بعده بثلاثة قرون « ديمتريانس » الفاليرى فكتب مجموعة من هذه الخرافات تشمل ما نقل إلى اليونان من مصر ، ونسب كل منها إلى إيسوب السابق .

ونظم بابريوس « Babrius » الذى عاش قبل الميلاد بمائة وخمسين سنة بعض هذه الخرافات فى أسلوب جميل .

أما أشهر من كتب الخرافات اللاتينية ، وكان مقلدا فيها اللاغريق كغيره من أبناء قومه ، فهو فيدراس (١) Phedrus وقد نظم القديم منها كما فعل بابريوس . والفرق بينهما أن شعر بابريوس رقيق ، أما الثانى فقوى موجز يطبع الخرافة الاغريقية بطابع الوقار .

ولما طغى البرابرة على الدولة الرومانية لجأت الخرافات اللاتينية والاغريقية إلى الأديرة . فجمعت كتبها هناك وانتفع بها بعض القساوسة فى الوعظ ، ومنهم « القديس سيريل Saint Cyrille » فى القرن التاسع م. الذى جمع منها مجموعة ينتفع بها هؤلاء الوعاظ ، ولكنها كانت ثقيلة ومتكلفة .

---

(١) فيدراس : تاريخ حياته مجهول كغيره . يقال إنه ولد فى مقدونيا وكان رقيقا ثم أعتق وعاش فى عهد تيبير « Tibère » حوالى القرن الأول .

وظهرت القوميات فى أواخر القرون الوسطى ، واهتمت كل أمة بلغاتها واتصل الأوربيون بالشرق مرة ثانية : فى اسبانيا ، وفى الحروب الصليبية ، وفى الرحلات . فعرفوا الخرافات الشرقية ، كما اهتموا بالخرافات المحلية .

وكان من ذلك كله أن تجددت الخرافة وأصبحت تستقى من خيال الشعوب . ومن الخرافة القديمة المدخرة فى خزائن القساوسة ، ومن الخرافات الشرقية . وقد يضيف اليها بعض الكتاب خرافات مستقلة ، من خيالهم أو مبنية على ماهو شائع فى قومهم .

وتمتاز الخرافات الشرقية الأصل بما فيها من شخصيات وحوادث وعادات أجنبية . وقد تمتزج فى الخرافة صفات الشرق والغرب .

وأشهر من نظم خرافات من مؤلفى العصور الوسطى «مرى دى فرانس»[1] فقد نقلت إلى الشعر الفرنسى مجموعة من الخرافات ترجمها « هنرى الأول » ملك انجلترا عن اللاتينية الى الانجلوسكسونية .

وإذا كنا نجهل كثيرا من كتاب الخرافات فى هذه العصور التى ازدهرت فيها فقد شاعت خرافاتهم وتحمس لها الجمهور ، وأقبل عليها الشعراء والأخلاقيون ورجال السياسة ، يؤلفون فيها ، أو يقتبسون منها ، فى كل مناسبة . وأكثر من اهتم بها أولئك الذين يخاطبون الجماهير الساذجة ، ذات النفوس الصافية ، التى تسرها هذه التعاليم والأخلاق فى صورة لطيفة تعرف طريقها إلى القلب

وقد اهتم بها مارتن لوثر[2] وظنها خير مرشد إلى الفضائل ، فطبع ونقح إيسوب .

---

(١) مرى دى فرانس «Marie de France» : ولدت فى كامبين Campiégne فى أواخر القرن الثانى عشر .

(٢) مارتن لوثر « Martin Luther » : (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م) . من أشهر رجال الاصلاح الدينى فى ألمانيا ومؤسس المذهب البروتستنتى :

وفي النصف الأول من القرن السادس عشر نضج الفن وبلغ الرابع لأحد الشعراء فنظم مائة خرافة شعرا [1] فحازت نادرة الرقة . صافية الأسلوب .

أما إسبانيا فكانت تفضل الخرافات الشرقية التي ورثتها عن العرب وتضمنها المقالات والقصص المطولة

ونشر في فرنسا كثير من الخرافات في القرن السادس عشر وتمتاز رقتها ونشاطها وقوة عباراتها .

أما النصف الأول من القرن السابع عشر فكان عصر انحطاط وإهمال لحاء حتى جاء لافونتين فرفع بها إلى أعلى درجاتها

لافونتين (٢)

Jean de La Fontaine

مجموعة خرافاته التي نشرها أوبرتان خليط من الخرافات الشرقية والغربية قديمها وحديثها، وقد أشير في ذيل الصفحات عند كل خرافة إلى مصدرها إن كان معروفا ، وأكثرها معروف -

وكانت نفس لافونتين ميالة إلى التأمل والدراسة ، والاستغراق أحيانا ، في ملاحظة الحيوان . كان يحد السرور ، في نزهة خلوية وحيدا ، وفي التأمل وفي ملاحظة طرق الحيوان الأعجم وأخلاقه . وهي دراسة أوحت إليه بفكرة الخرافات التي أهدي فيها إلى قومه ، وإلى الناس جميعا ، خير مجموعة من قصص الحيوان في الشعر . . (٣)

---

(١) « Aubertin. P. 79. »

(٢) لافونتين : ١٦٢١ - ١٦٩٥ . من أسرة فرنسية عالية . أراد ان يدرس الدين ولكنه عدل عنه إلى القانون ولم يبدأ الكتابة إلا بعد الثلاثين وبدأ الخرافات بعد ذلك (The Outline of Lit. P. 375)

(٣) مقدمة تارفر Tarver عن لافونتين ص ١٨

وكان يعتقد أنه يحاول عملا جديدا مهما ، وقد قال فى مقدمته الأولى : « انى أخدع نفسى ؛ مؤملا — إذا لم أستطع السير فى هذا العمل بنجاح — أن أظفر بفضل البدء فيه . »

وكان يستغرق فى ملاحظة الحيوان فينسى كثيرا مما يجب أن يفعل :

« يحكى أنه دعى يوما إلى الغداء عند صديق له ، فنسى ذلك نسيانا تاما . ولما سئل عما شغله أجاب بأنه كان يحضر جنازة نملة ، وأنه صحبها إلى القبر ، ثم عاد مع الأسرة الحزينة التى فقدت السلوان » .

على أن دراسته للحيوان لم تكن دراسة علمية ، ولا أراد ذلك فى خرافاته ، ولكنها كانت نوعا من الاستغراق فى الموضوع ظهرت آثاره فى كتابة تلك الخرافات العظيمة .

وتمتاز هذه الخرافات ببساطتها ، ورقة شعرها ، وتنوع أغراضها ، وحسن تصوير شخصياتها .

وتكاد كل خرافة منها تحتوى على قصة قصيرة ، ووصف ، وحديث أو حوار ، وتمثيل ، وتصوير للشخصيات ، وفكرة خلقية . ويظهر فيها حبه للطبيعة ، ومقدرته فى الشعر وفى الملاءمة بين أجزاء القصة .

ومن أظهر ما تتميز به هذه القصص أنه جعل أبطالها من الحيوان صورا لأفراد الجماعات الإنسانية . وقد نشر « هنرى تين »[1] « Taine » كتابا عن خرافات لافونتين ، بين فيه هذا التشابه بين جماعات الحيوان وطبقات الناس فى العصر الذى عاش فيه لافونتين .

ومن ذلك أنه عقد موازنة بين السبع والملك ، فبين أن لافونتين يرى صاحب الجلالة « الأسد » وقورا عظيما دائما ، وأنه يدرك ما يليق بجلالته وبعقليته . فخالبه ترفعت عن أن تعاقب الوعل لما اجترأ على عدم البكاء عند موت

---

(١) فيلسوف ناقد مؤرخ فرنسى (١٨٢٨ - ١٨٩٣) ومن أشهر كتبه تاريخ الأدب الانجليزى

اللبؤة . ودعا الذئاب أن تقدم هذا الوعل البائس قربانا إلى روحها المقدس.

وأورد مرتين أمثلة كثيرة أخرى من هذه الموازنة ، فبين أن السبع عظيم في العادة ، وأنه جدير بالتقدير والاعجاب .

وجاء بموازنة أخرى بين بعض الحيوانات وأشباهها من طبقات الناس كالموازنة بين الثعلب والذئب والنمر ... ومن يشبههم من رجال البلاط الخ .

كان لافونتين شاعرا حقا ، وإن حبه للطبيعة ليذكر بفرجيل ، كما يذكر به مازاه في لافونتين من رقة وعاطفة قوية ، وهو يمتلىء بالفكاهة الماكرة ، والنكتة الرقيقة ، وهو يشبه هوراس في أنه يتهكم من غير أن يجرح ، ويدور حول القلوب فيلعب بها ، وهو ملاحظ دقيق للناس ، ويرسم الجماعة كلها في القرن السابع عشر : مما يعيد إليها الحياة . بعظمها و نقط الضعف فيها ، من ترفها إلى فقرها ، ومن الحاكم العظيم الى الرجل الحقير ، ومن صاحب الجلالة الأسد ، إلى رجل الحاشية النسناس » .

ويعتبر لافونتين أشهر من كتب الخرافات الحيوانية في العصر الحديث

العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ

وفي القرن التاسع عشر الميلادي اطلع كثير من المثقفين عندنا على أدب الفرنسيين ونقلوا بعض الآثار القيمة من أدبهم . ومن الذين شاركوا في هذه الترجمات والنقل فاضل له شهرة في الأدب هو المرحوم « محمد بك عثمان جلال المصري (توفي سنة ١٨٩٨ م ١٣١٦ هـ) .

ويعنينا من ذلك كتابه « العيون اليواقظ في الحكم والأمثال والمواعظ » .

وأشار جورجي زيدان إلى أنها هي أمثال لافونتين ، وقد كتب لها المؤلف مقدمة نثرا تحدث فيها عن واضع هذه الحكايات الأول وهو « ايثوب » وجاء بتفصيل تاريخه من أول أمره إلى نهايته ، و دأ النظم بتقريظ لكتابه فمدحه ، ثم أشار في قصيدة أخرى بعد التقريظ الى حكاياته التي أوردها ، وأنها

مشتهرة الأصول ، ثم مدح الخديوى عباسا ؛ ثم جاء بهذه الحكايات بعد ذلك وورد فى المقدمة :

وانظر فتلك روضة المعانى ... ودحة المنطق والبيان
نظمت فيها مائتى حكايه ... وكلها بالحسن فى نهايه
فيها إشارات إلى مواعظ ... نافعة لكل واع حافظ
ضمنتها أمثالها والحكما ... وربما استعرت قول الحكما

وفى هذه الأبيات القليلة يشير محمد عثمان جلال إلى طريقته فى التأليف ؛ فقد إقتصر على مائتى حكاية ، وهو قدر ليس بالقليل . وضمن كل حكاية مثلا أو حكمة ، من إنشائه ، أو مستعاراً من أقوال الحكماء .

وأما أن هذه الحكايات هى حكايات لافنتين فذلك صحيح إلى حد كبير ، وقد تتبعت هذه الحكايات فى أمثال لافونتين فوجدت كثيراً منها بعناوينها وتفاصيلها هناك :

ولكنه لم يتتبع الترتيب الذى جاء به لافونتين فيما أخذه عنه ، وحاول أن يظهر شخصيته واضحة قوية ، فجاء كتابه تعريبا ، مثل كتاب كليلة ودمنة ، لا نقلا حرفيا . ولعله أول من تأثر بالحكايات الغربية فى استقلال القصص ، والايجاز ، والبعد عن الاستطراد ، وذلك من أهم الطوابع التى تميز قصص الحيوان عند الغربيين منذ اليونان ، إذا استثنينا عددا قليلا منها ، مثل قصص الثعلب Romans du Renard ، وقد أشار إلى سبب الاختصار فى الحكاية الثالثة عشرة بعد المائة « حكاية النسور والحمام » إذ يقول عما جرى بين النسور :

فلا تسل ياصاحى عما جرى ... بحسر دما بين النسور قد جرى
ولاختصار لم أطق تفصيلا ... ولم أرد لشرحها تطويلا
فالطرس لم يصبر على رمى القلم ... كذا من التطويل كلت الهمم

كما يقول فى حكاية العجوز وصبيانها والديك : (ص ١٣٤)

عنى اسمعوا حكاية العجوز واصغوا إلى كلامها الوجيز

ولم يكن هذا تكملة الوزن ، فانه قد سار على هذه الطريقة فعلا ، كما أشار اليها قولا: لأن الأصل الذى نقل عنه أكثرها ، وهو لافنتين ، كان كذلك .

(٢) وقد حاول تصير هذه القصص وتعريبها بطرق متعدده ، كأن يضيف الحيوان إلى مكان فى مصر . فحكاية الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج[1] تبدأ بقوله :

حمّار بولاق له حمير وفى البلاد شغله كثير

وحكاية الذبابة والنملة أولها :

تشاحنت ذبابة مع نمله[2] ما بين بولاق وبين الرمله

وقد يضيفها إلى بلد شرقى . كحكاية الذئب الذى لبس ملابس الراعى :

إنى سمعت حكاية فى المشرق عما جرى للذئب وهو بحاق[3]

وفى قصته الدرفيل والقرد[4] أن الأول أنقذ الثانى من الغرق لما انكسرت به المركب وسار به الى الشاطىء :

وقال : ذى دمشق ، أنت منها؟ قال : نعم ، سل ماتشاء عنها

قال له : جزيت خيرا ، قل لى : وحمص هل رأيت فيها مثلى؟

قال له : حمص حبيبى ، وَلَهْ فى عشرتى بين الرجال وَلَهْ

وظن أن حمص كان رجلا فقال ماقال ، وما تعقلا

فضحك الدرفيل مما قالا وظنه مافهم السؤالا

والفت الدرفيل للنديم رآه قردا جاء من أبريم

قال له خيبت فيك ظنى رح وانصرف يابن القرود عنى

---

(١) ص ٥٤ (٢) ص ٧٤ (٣) ص ٦٨ ، دمشق ، (٤) ص ٦٦

وانظر أيضا إلى الحوار فى هذه القصة ، والى السخرية المضحكة من جهل القرد وتكلمه بما لا يعلم . وفى حكاية الدب والصاحبين (١) :

حكاية رويت دون مَين عمن حكاها قبل فى شخصين
راحا لشخص فى الحجاز قرا والدراهم الملاح اغترا
باعاه جلد الدب وهو حى وكيف ذا يدرك يا أخى

وفى حكاية « القوقعة والمتداعيان » يبدؤها بقوله (٢) .

شخصان أقبلا من الحج معى قد لقيا قوقعة فى ينبع

والطريف أن الصورة التى فى الكتاب فوق هذا البيت صورة قسيس ، والشخصان فى ملابس القرون الوسطى ، وبيد كل منهما قبعة ، وهى منقولة عن كتاب لافنتين . وفى حكاية القط والثعلب أنها : (٣)

قد طلبا الرحلة للحجاز واشتغلا فى العفش والجهاز

ويقول فى بدء حكاية التاجر والحاكم : (٤)

سمعت أن أحد الأروام تاجر عاما فى ضواحى الشام

وحكاية شجرة البلوط والسنبلة يضيفها إلى الامام السيوطى فيقول : (٥)

حكاية عن شجر البلوط نقلتها عن شيخنا السيوطى

وهى من حكايات لافنتين (٢٢ من الكتاب الأول) نقلها عن الخرافة (٤٣) من إيسوب . ولكن الوزن قد دفعه الى هذا الأسناد فجاء موفقا خفيف الروح

(٣) وقد يخترع من عنده أوقاتا أو أزمانا لحكاياته . ففى حكاية السبع والأرنب التى أوقع فيها الأرنب بملك الوحوش ؛ إذ أخبره أنه كان قادما اليه

---

(١) ١٠٨ ، ٢٠ ، ص ١٥٣ ، ٣٠ ، ص ١٥٥ ، ٤٠ ، ص ١٦٢ ، ٥٠ ، ص ٥٥

بأرنب فقابله سبع آخر وأخذه غصبا عنه : (١)

قال له السبع وأين كانا أوضح لى الزمان والمكانا

فقال : كان فى طلوع الشمس فى بلدة تسمى بعين شمس

وفى القصة «فى ميتم السبع» أنه لما ماتت زوجته جاءت الوحوش للتعزية فقال لهم : (٢)

أمرتكم أن تحضروا فى القلعة يوم الخميس مع نهار الجمعة

وكأن الأسد يعرف أيام التعزية والترحم عندنا فدعاهم فى اليوم المحدود.

وفى حكاية الذئب والبطة (٣):

إنى رأيت الذئب يوم العيد أوى إلى البطة من بعيد

وفى حكاية الكلب والذئب :

ذئب ضعيف مر بعد العصر يسعى على القوت بجنب القصر

(٤) وهو يختم كل حكاية بمغزى خلقى ، قد يكون من نظمه وقد يكون بيتا عربيا كاملا . فقد ختم حكاية الحمامة والنملة بقول أبى العتاهية

فمن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا (٤)

وفى حكاية «الحكيمان» يختمها بقول معن بن أوس :

لعمرك ما أدرى، وإنى لأوجل على أينا تعدو المنية أول (٥)

وفى حكاية «الكنز والرجلين» يختمها بقول ابن الهبارية :

والعيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأى ولا التدبير (٦)

وقد يكون شطر بيت، مثل : «ومن يشابه أبه فما ظلم» (٧)

وفى حكاية سيىء البخت :

---

(١) ص ٢٧ (٢) ص ٧٧ (٣) ٧٧ (٤) ص ٨

(٥) ص ٥٤ (٦) ص ١٢٦ (٧) ص ١٧١

« تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن »[١]

وقد يكون مثلا عاميا كاملا أو مختصرا أو معدلا كما ترى فى ختام حكاية البنت المعجبة بنفسها التى رضيت آخر الأمر بزوج قبيح ،مثل قوله :[٢]

فلقد صح هاهنا قول من قال فى النكت
خطبوها تعززت تركوها تندمت

وفى حكاية الكلب الذى ترك الرغيف واتبع خياله[٣] :

ومثله بين الورى كثير من شانه فى العيشة الغرور
ما حصّلوا بالجهل فى أى زمن لا عنب الشام ولا كرم اليمن

وفى حكاية حرب الفيران مع ابن عرس يختمها بقوله[٤] :

هكذا العربان بين القافله فى راحة والناس عنه غافله

والقرآن الكريم كان مددا له أيضا . يقتبس منه فى المغزى ؛ بشىء من التحوير فقد ختم حكاية المها الذى نظر نفسه فى الماء بقوله[٥] :

وأنتم يا سامعى فانتهوا لاتكرهوا شيئا عسى أن تكرهوا

وفى حكاية الجنايين وسيده كان ختامها :[٦]

وآية الملوك أوردوها إن دخلوا قرية أفسدوها

وفى حكاية النهى عن الاسراف يقول فى آخرها :[٧]

ورد النهى عن الاسراف فى الذكر والحديث والقوافى
فجاء : « إن الله لايحب » وهو إذاً معرة وذنب
« خير الأمور » من حديث المصطفى والله ربى فهو حسبى وكفى

وفى حكاية الحصان والذئب :[٨]

وهكذا الناس : كل من بدا بالخبث لايخرج الا نكدا

---

(١) ص ٧٢ (٢) ص ١٠٤
(٣) ص ٤٣ (٤) ص ٢٢ (٥) ص ٤٣ (٦) ص ١٥٤
(٧) ص ١٥٢ (٨) ص ١٤

كما جاء بالأحاديث الشريفة فى المغزى أيضا فى حكاية الرجل القبيح الزوجة : (١)

ما كذب القائل فى أفكاره　　قد حفت الجنة بالمكاره

وفى حكاية النهى عن الاسراف السابقة : « خير الأمور » من حديث المصطفى » . والتاجر الذى أوصى أولاده يقول لهم (٢)

أوصيكم فى العيش أن تتحدوا　　من ينفرد فشمله مبدد
واشتركوا فى الرأى والبضاعة　　إن يد الله مع الجماعة

ورأيته يجعل الدخول على المغزى تمهيدا أحيانا ، وبغير تمهيد أحيانا أخرى.

أما اللغة التى استعملها ، والألفاظ التى استخدمها ، والأمثال والتعابير التى بين بها افكاره وحكاياته ، فكانت خليطا من الفصيح الراقى ، والعامى المعرب وغير المعرب، ولكنه كان فى كل ذلك يحرص على أن تكون العبارة قوية الأداء للمعنى .

وكانت عباراته وألفاظه العامية خفيفة تضفى على القصة روح المرح وبخاصة إذا أعربها . وهاك قصة الثعلب مقطوع الذنب : (٣)

حكاية فى ذكرها ترى العجب　　عن ثعلب رأيت من غير ذنب
وذاك أنه بفخ وقعا　　وفات فيه ذيله وطلعا
ثم انزوى من خزيه وانكسفا　　ومال بين قومه وانعطفا
وقال لابد أزيع المكرا　　وأن يكون الكل مثلى زعرا
شاهدته جاء إلى الثعالب　　وكان ذا بعد أذان المغرب
وقال : ما منفعة الذيول ؟　　باردة باسلة فى الطول
تكنس من ورائنا الأراضى　　من منكم بطولهن راضى ؟

---

(١) ص ٢٠٥　　(٢) ص ٦٩　　(٣) ص ٧٩

نقطعها ونستريح منها فصدقوا ما قد ذكرت عنها
قال له أحدهم : سمعنا ولكلامه قلنه أطعنا
لكن نريد أن زاك من ورا كيف تكون إن غدوت أزعرا
فاحمر حالا وجهه من الخجل وراح مكسوفا وولى بالعجل
قال : فردوا مكره إليه وهللوا من ضحك عليه

لاشك أن هذه الحكاية خفيفة الروح ظريفة فى عباراتها وألفاظها العامية كقوله : وفات فيه ذيله وطلعا . وقولهم له : « لكن نريد أن زاك من ورا كيف تكون إن غدوت أزعرا » وكذلك حاله لما انزوى من خزيه وانكسفا . ولما احمر وجهه من الخجل، وراح مكسوفا وولى بالعجل . وقد كانوا على صواب ، عندما هللوا من ضحك عليه » .

وأعتقد أن هذه الحكاية لو جاء العامى فيها فصيحا لما استمتع قارئها بما فيها من خفة الروح ، كما يستمتع الآن .

وهو فى الشعر والزجل قوى التصوير . يوضح الشخصيات ، والحوادث حتى يكاد القارىء يلمسها : ففى الحكاية السابقة يظهر واضحا تصويره للثعلب ومكره . ومكر الثعالب وسخريتهم ، وقالب الفكاهة الذى بدا فيه قولهم الساخر .

وقد جاء بحكايات من العامى الصريح ولكنها قليلة ، وهو فيها منطلق متمكن من صناعته ، فليس فيها قلق ولا اضطراب ، ولا تحوير فى الكلمات . ومنها قصة القطة التى قلبت امرأة وهى :

زى القصة دى ما يمكنشى عن راجل ويبيع الطرشى
كان له قطه جوه بيته مطرح ما كان يمشى تمشى
من حبه فيها يطعمها روس الضانى ولحم الكرشى
قال يارب تبدلها لى جارية من نسوان الحبشى
حبه ربه غيرها له جارية تسوى ألفين قرشى
راح السوق جاب ناموسيه قبل المغرب ما تأخرشى

بعد المغرب جاب يتعشى ... وياها بالقرع المحشى
هما على السفره يتعشوا ... إلا وفار فى القاعه يمشى
نطت دى الست اللى بتاكل ... مسكت دى الفار اللى يعشى
قال يارب اسخطها قطه ... ده اللى فيهش مايخلهش !

ويظهر أن سوق الزجل كانت رائجة . وكان الشعر العربى غير طيع لكثير من أهل النظم . ونلاحظ أن هذا الوقت هو الذى كان فيه السيد عبد الله النديم والشيخ على اللبّان — ماتا سنة ١٨٩٦ — ولهما من الزجل والأشعار الخليط شيء كثير ، يجمع إلى الفكاهة قوة النقد ، كما فعل محمد عثمان جلال ، الذى آثر الطريقة الرمزية على ألسنة البهائم والطير .

وفى كتابه حكايات كثيرة جديدة لم تعرف عند مؤلفى القصص الحيوانية من العرب ، بسبب أصلها الذى نقلت عنه . وقد شاع كثير من حكاياته بمعناه أو بلفظه . وعرف طريقه إلى كتب الأطفال التى أدرك مؤلفوها قيمة القصص الحيوانية فنثروا قصص محمد عثمان جلال أو نقلوها شعرا .

جاء بعد صاحب العيون اليواقظ اثنان من أدباء الخرافات هما المرحومان ابراهيم بك العرب ، وأمير الشعراء شوقى بك

وقد اتجها وجهة غربية فى شكل خرافاتهما ، فجعلاها قصصا مستقلة قصيرة ، وآثرا الشعر على الزجل وشبهه . عند صاحب العيون اليواقظ .

وقد سمى الأول مجموعة خرافاته « آداب العرب »

وقدم لها بمقدمة يقول فيها :

« أما بعد فهذا كتاب خدمت به نابتة الوطن المحبوب ، وأجريت فيه الأمثال والحكم المأثورة ليأخذوا منها ما يربى نفوسهم ، ويقوم أخلاقهم ، ويطبعها على أصوب آراء المتقدمين .

وقد التزمت أن أجعل مواعظ كتابى أقاصيص قريبة التناول ، واضحة

المعنى ، سهلة النظم . »

وجعل أكثر تلك الأقاصيص عن الحيوان وختمها بعظات . ومن القصص المشهورة التى يبدو فيها حسن النظم واضح الغاية ، حكاية الطاوس الذى أظهر إعجابه « واختال بين الورد والآس » فبدا فتنة للعين « بحسن ريش الذيل والراس » ، فتصدى له عصفور وشبه ، وعاب سيقانه العارية :

فقام من حولهما طائر يرميهما بالمنطق القاسى
فقال : كل منكما معجب وغافل عن عيبه ناسى
لو نظر الناس إلى عيبهم ما عاب إنسان على الناس

وشعره عامة فى درجة جيدة وإن كان بعضه ضعيفا . وكان يختم كل قصة بالمغزى كما تقدم . وهو من نظم غيره من الشعراء السابقين فى أكثر هذه القصص ، ويحسن التمهيد له فيمشى مع القصة ويوافقها تمام الموافقة .

فاذا كان من نظمه بدا فيه الضعف أحيانا . وقد سمى هذه القصص « العظات » وعددها تسع وتسعون . والخاتمة التى جمع فيها حكما ، ووصف فيها صنوفا من الناس ، شعرها رصين وقور ، يناسب موضوعها .

أما شوقى فقد شاعت خرافاته قبل أن تجمع فى الجزء الرابع من ديوانه وعرفت طريقها إلى كتب التلاميذ « كالحمامة التى كانت بأعلى الشجرة » ، و « الثعلب الذى برز فى شعار الناسكين » ، والعصفورتين اللتين حلتا فى الحجاز على فنن » .

وهى غربية المظهر أيضا باستقلالها وقصرها ، وهذا المثال منها وهو قصة الثعلب والديك خلاصته : أن الثعلب أراد أن يمكر بالديك ليأكله ، وكان بعيدا عن متناوله فظهر فى شعار الواعظين ليخدعه ، وأرسل إليه رسولا يدعوه ليؤذن لصلاة الصبح ، فاعتذر الديك لما أصاب بنى جنسه من الثعالب

ولقد أحسن شوقى تصوير الثعلب فى مكره ، وألبسه ثياب الواعظين حتى كاد يعد منهم .

فمضى فى الأرض يهدى ويسب الماكرينا
ويقول : الحمد لله إله العالمينا
باعاد الله توبوا فهو كهف التائبينا

وما أحسن حيلته حين جعل الأذان إعلاناً لصبح مبررا لدعوة الديك، أما الديك فقد أجاب جواب موتور .

. . . . . عذراً يا أضل المهتدينا

وقال لرسول الثعلب :

بلغ الثعلب عنى عن جدودى الصالحينا
عن ذوى التيجان ممن دخل البطن اللعينا
أنهم قالوا : وخير القول رأى العارفينا
مخطىء من ظل يوما آمناً للظالم دينا

أليس شوقى قويا فى تصويره للثعلب المخادع والديك الموتور ؟ إن كل لفظ كتبه شوقى فى هذه القصة ينطق بقوة هذا التصوير ، وأما غاية القصة فيجمعها البيت الأخير .

وقد التزم شوقى هذه الطريقة . أما مصادر قصصه فكان منها الشرقى ومنها الغربى . وكان يصبغ قصصه بصبغة محلية كما كان يفعل صاحب العيون اليواقظ . فى قصة العصفورتين الحجازيتين رى موطنهما فى الحجاز ، وقد مر بهما ريح جاء من اليمن فعز عليه ما هما فيه من ضنك بسبب بؤس البيئة التى يعيشان فيها . ولما دعاهما أن يسيرا معه إلى اليمن :

قالت له إحداهما والطير فيهن الفطن
ياريح أنت ابن السبيل ماعرفت ما السكن
هب جنة الخلد اليمن لاشىء يعدل الوطن !

وله كثير من هذه القصائد البديعة التى سما شعرها . ولطف حوارها ، ودقت عباراتها ، وناسب بين معناها ومبناها .

وقد عنى رجال التربية وعلم النفس ببيان قيمة القصص عامة ، ومنها الحيوانية — فى تهذيب الأخلاق ، وتربية الخيال ، وتعليم أساليب اللغة . واعتمدوا فى ذلك على دراستهم للطبائع والغرائز وقوة الخيال . ووضعوا الأسس التى يجب أن تسير عليها القصص كى تؤدى إلى غايتها فى تربية أخلاق التلاميذ وأذواقهم ، ووجدانهم وخيالهم . فتنوعت القصص واختلفت باختلاف أعمار التلاميذ .

كما روعى فيها جانب تعليم اللغة . فحاول مؤلفوها الترقى فى الأساليب من سنة إلى سنة ، وزيادة الثروة اللغوية والبلاغية عند التلاميذ .

واستخدمت القصة فى غير الخرافات أيضا . وجاءت على شكل حديث الحيوان عن نفسه . وفى أثنائها تأتى المعلومات من التاريخ الطبيعى حقائق لا خيال فيها . كما ورد بعض هذه القصص على شكل محاورات أو مفاخرات بين الحيوان بعضه وبعض ، ولا تخرج المعلومات فيها عن حقائق التاريخ الطبيعى .

وكان من آثار ذلك أن تنوعت قصص الحيوان تنوعا عجيبا ، فكان منها الأسطورى ، وكان منها الحقيقى ، ونقل بعض المؤلفين حكاياتهم فى التهذيب عن الشرقى القديم ، والغربى المترجم . وكان بعض هذه القصص موضوعا ، وبعضه منقولا نقلا دقيقا أو بتصرف . وجاء بعضه مع غيره من القصص الأخرى فى كتب المطالعة ، وبعضه فى كتب خاصة بقصص الحيوان ، وبعضه مطولا وبعضه مختصرا .

وقد شاعت فى أنحاء العالم قصص حيوانية مصورة تعرضها دور الخيالة من عمل السينمائى المشهور «وولت ديزنى» وغيره ؛ ومن أشهر الحيوانات التى صورها الفنان «ميكى ماوس» ، وكان لعبقريته فى تصويره ، ورسم حكاياته ، وعرض قصصه ، وتلوين هذه القصص بألوان جذابة من الفكاهة والغرابة

أكبر أثر فى إقبال الأطفال عليها فكانت وسيلة لطيفة جدا من وسائل تسلية الأطفال ، وتعليمهم وتربية خيالهم .

والحق أن قصص الحيوان فى القرن العشرين تحتاج إلى دراسة مستقلة تبين أنواعها وغاياتها ، تأثيرها فى الأطفال ، ومناسبتها لأعمارهم ، ومقدار نجاح المؤلفين فى ذلك . وما استعانوا به من وسائل البيان والعلم ، والقواعد النفسية والتربوية ، لكى يصلوا إلى غايتهم .

وقد يكون ذلك جزءا من دراسة عامة لقصص الأطفال . ـ ومنها قصص الحيوان ـ فى القرن العشرين .

المراجع العربية

الأذكياء لابن الجوزى

الأمالى لأبى على القالى ١٩٢٦ طبع دار الكتب

الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى « « والسامى

ألف ليلة وليلة « صبيح

اخوان الصفا ـ لعمر الدسوقى « الحلبى

أساطير العرب فى الجاهلية ـ عبد المعيد خان .

آداب العرب ـ لابراهيم بك العرب .

الأوراق ـ للصولى (نشره هيوارث دن) . مطبعة الصاوى

أمثال لقمان .

البيان والتبيين للجاحظ « السندوبى » .

بلوغ الأرب للألوسى . الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية

تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعى « المكتبة التجارية »

تاريخ آداب اللغة العربية ١٩٠٤ جورجى زيدان مطبعة الهلال

تاريخ الأدب الفارسى رضا زاده شفق ترجمة دكتور هنداوى

تاريخ الأمم الاسلامية ١٩٠٢ لخضرى

تاريخ دولة المماليك فى مصر « موير » ترجمة محمود عابدين وسليم حسن

تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ، الاسكندرى وسليم حسن .

التاريخ القديم شفيق غربال بك

تداعى الحيوانات على الانسان ، نشر ، ديتريصى طبع برلين

تفسير : الطبرى ، الزمخشرى ، النسفى ، الألوسى ، الفخر الرازى ، البيضاوى

جمهرة أشعار العرب طبع السندوبى

جمهرة الأمثال « للعسكرى » ، هامش أمثال الميدانى .

obeikandl.com

حياة الحيوان الدميرى
الحيوان للجاحظ
حى بن يقظان لابن الطفيل .
خزانة الأدب للبغدادى .
سلوان المطاع لابن ظفر .
سيرة ابن هشام
الشعر والشعراء لابن قتيبة
الشوقيات ج ٤ شوقى .
شرح شواهد الكشاف .
الصادح والباغم لابن الهبارية .
ضحى الاسلام لأحمد بك أمين .
الضرائر للألوسى .
الضوء اللامع ١ ، ٢ للسخاوى .
طبقات الشعراء لابن سلام .
عصر المأمون لفريد رفاعى .
العقد الفريد لابن عبد ربه .
العيون اليواقظ لمحمد عثمان جلال .
فجر الاسلام لأحمد بك أمين
فى الأدب الجاهلى لطه حسين باشا .
فى أصول الأدب لأحمد حسن الزيات
فاكهة الخلفاء لابن عربشاه .
الفهرست لابن النديم .
القرآن الكريم .
قصص القرآن لجاد المولى .

قصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار .
قصص العرب لجاد المولى وآخرين .
قصة الأدب فى العالم ج ١ ، ٢ .
القاموس المحيط
كليلة ودمنة لابن المقفع .
كليلة ودمنة تحقيق الدكتور عزام .
كشف الظنون لكاتب حلبي .
الكتاب المقدس .
لسان العرب لابن منظور .
مجمع الأمثال للميدانى .
مروج الذهب للمسعودى .
مرزبان نامه لابن عربشاه .
المستشرقون لنجيب العقيقى .
المسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد.
معجم البلدان لياقوت .
منبعا الدين والاخلاق ـ برجسون تعريب الدروبى وعبد الدايم .
مقدمة ابن خلدون .
معاهد التنصيص للعباسى .
موسيقى الشعر الدكتور ابراهيم أنيس .
نتائج الفطنة لابن الهبارية .
نهاية الارب للنويرى .
النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية لمحمد محمود جمعه
الوسيط للاسكندرى وغنانى .
وفيات الأعيان لابن خلكان .

المراجع الأجنبية

Ancient India ard Indian civilization.

The Anvar -1- Suhaili, Fastwick

The big Book of animal stories, Mary,S. Lane.

Chamber,s encyclopaedia.

Comus and Lycidas. Milton.

Encyclopaeddia Britannica.

The Jewish Encyclopaedia.

The koran, translation, Rodwell, Everyman,s.

Medieval Islam, Von Grunbaum.

Myths and Legends of ancient Egypt, Lewis Spence

The story of civilization, Durant.

The Shorter Oxford English Dictionary.

The Squire,s Tale, Chaucer.

The Wisdom of India by Michael Jarefh.

Nouveau petit Larousse.

Les Fables de La Fontaine, Tarvèr.

Fables de La fontaion, Charles Aubertin.

obeikandi.com

وردت بعض أخطاء وهذا صوابها

صفحة	سطر	الصواب
١١	٢٣	Ency
٢٥	٦	٢ ـ الخرافات
٣٠	٨	apologue
٣١	٨	أوبرتان
٣٤	٢١	India
٣٥	١٩	السبع
٣٧	١٣	بانيبال
٤٧	٢١	سورة
٤٨	٢٢	الجدالة = الأرض
٥١	١٠	كعادته
٥٦	١	يفحص
٥٦	٢٠	أعضب
٥٨	٢١	العنكث
٦٠	١١	باهلة
٦٢	٨	جزاؤهم
٦٤	٥	بشه
	٦	يأتيه
	٨	لتنظر
٦٥	٢٠	الكياب
٦٦	١٠	لبّه
٧٢	١٠	تتفحج

صفحة	سطر	الصواب
٧٢	١٢	تشتو
٧٥	٤	شعف
٩٢	١١	فتبعها
٩٧	٨	واكرام
	٩	بالثأر
٩٨	١١	بعض هذه
١١٢	١١	أنو شروان
١٢٧	١٤	الصياد
١٤٩	٨	الرعية
١٥٦	١٨	ياسادات
١٥٨	١	يد
٦١٠	١٩	مفاخرة
٢٦٧	١٧	إذ
١٧٣	٣	القبس
١٧٤	٢٣	البديعية
١٧٧	١	الخلفاء
	١٥	الهوام
	٢٠	المعاملات
	٢١	كليلة
١٨د	٩	الأذلان
	١٨	أراد
٩٥	٢	حكاية

obeikandl.com